القسم الثالث

مماليك هذا الزمان ....؟!

بالأمس البعيد ..كانت الأسواق تمتلئ بهذه السلع " البشرية " التى كانت تأخذ أسماء مختلفة : عبيد ..رقيق ..أقنان . وفى بلادنا بصفة خاصة عرفت طائفة ضخمة باسم " المماليك " . وعلى الرغم من "دونية " الأصول العرقية والاجتماعية لهم ، إلا أن كثرة منهم عرفت طريقا فريدا فى التنشئة والتربية والإعداد ، جعل منهم شخصيات متفردة متميزة ، حتى أنهم استطاعوا أن يحكموا مصر والحجاز والشام طيلة ما يزيد على قرنين من الزمان ...

كانوا ينشأون على الفروسية ، واللغة العربية ، والدين ، والأدب ، ويقيمون فيما يشبه المدرسة الداخلية ذات طابع عسكرى حتى لقد سموا " بالمماليك البرجية " ، وفى عهدهم الأول خاصة فاضت أنهر العلم والثقافة والأدب فى أمتنا ، وظهر منهم قادة أفذاذ مثل الظاهر بيبرس ، وقطز الذان احتلا مكانة مرموقة فى التاريخ العربى الإسلامى .

لكن حالهم بعد ذلك ، وفقا لما تقضى به سنن العمران البشرى ، تدهورت ، وأصبحوا وبالا على أمتنا ، وحانت الفرصة لمحمد على فى مطلع القرن التاسع عشر أن يقضى على عدد غير قليل منهم فيما اشتهر بمذبحة القلعة سنة ١٨١١ ، وتفرقت الكثرة فى أنحاء البلاد حيث ذابوا بين أفراد الشعب ، واختفوا من على الخريطة البشرية ، كطائفة ذات نوعية خاصة .

وإذا كان محمد على قد استطاع أن يقضى عليهم ككيان سياسى واجتماعى ، إلا أن الفكرة الأساسية ..بيع الناس وشرائهم ، استمرت عقودا عدة فى صورة رقيق ، حتى انقرضت وأصبحت محرمة دوليا .

ويؤكد لنا علماء الثقافة والتطور الحضارى والأنثروبولوجيا أن التحلل إذا أصاب كيانا حضاريا ، فإن هذا لا يعنى الاختفاء التام لكل عناصره ، إذ تستطيع بعض العناصر أن تتخفى وراء أشكال جديدة لتتكيف مع الكيان الحضارى الجديد مما يتيح لها فرصة الاستمرار ، وآية ذلك أن التحليل الاجتماعى والثقافى لكياننا المعاصر يمكن أن يدلنا على عناصر فرعونية وقبطية وفارسية وعثمانية ، وفرنسية وانجليزية ما زالت تعمل فى حياتنا اليومية ، على الرغم من انقضاء العهود التاريخية التى حكمنا فيها أصحاب هذه الكيانات الحضارية .

وهكذا الأمر بالنسبة لظاهرة " المماليك " ، لقد اختفوا ككيان عرقى واجتماعى ، لكنهم عاودوا الظهور فى شكل آخر ، يدمى القلب حقا ويؤلم النفس ، ذلك أن منهم علماء ومفكرين ومثقفين !

فالتحليل الدقيق لحياتنا المعاصرة ، ومعظم الدول النامية ، يمكن أن يكشف لنا عن عمليات فرز وانتقاء واستبعاد واختيار لعدد ممن يسمون بالمثقفين ، الذين يسمون " على صفحات الكتب " بضمير الأمة ، الذين يبثون بين أفرادها الوعى ، وينشرون النور بين الناس ، ويهدون إلى الطريق المستقيم ، ويحثون الأمة على الصمود أمام العواصف العاتية ، يبثون الحماس ، وينظرون ، ويُقعدون ، ويحللون ويدرسون .

فهؤلاء لديهم القدرة على تشكيل العقول وتكوين الاتجاهات وغرس القيم بين الناس ، لا بقوة سلاح ، ولا بقوة قانون ، ولا بسطوة مال ، وإنما بالمنطق والإقناع ، وعمق التفكير ، والجدال بالتى هى أحسن ، والأسلوب الجذاب ..

من هنا فقد وجد الحكام أنهم ، على كثرة بين بين أيديهم من وسائل ، من قوانين ، وشرطة ، ومال ، ومناصب ، إلا أن كل هذا لا يؤتى أكله فى الاستيلاء على عقول الناس وقلوبهم كى يكون طيعيين " يسمعون الكلام " ، يسمعون الوقل يسقط من أعلى ، وكأنه الحكمة الخالدة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها أو من خلفها ، ينظرون إلى القول المخالف ، كأنه " همس الجنون " يخرف به كل معتد أثيم !! يطبقون بكل حماس تلك المقولة الشهيرة " أنا لا أتكلم ، لا أسمع ، لا أرى " ! صحيح تظل لهم عيون ، وتستمر لهم آذان ، ولا تختفى لهم قلوب ، ولكنهم " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها وولهم آذان لا يسمعون بها " ، فماذا تكون النتيجة ؟ " إنهم كالأنعام بل هم أضل " !

كيف يمكن الحصول على كثرة جماهيرية من مثل هذا النوع ؟

هنا تتم عملية اختيار وانتقاء لنوعية من المثقفين والعلماء والمفكرين ، يقومون بالدور المرسوم ...إنهم المماليك الجدد !!

وتتعدد وسائل الإغراء والشراء : القرب من ذوى السلطان ، فذلك يحميهم من أن يقع عليهم أذى ، ويجلب إليهم العديد من المزايا ، فيكفى - مثلا - أن يكون هذا مقربا من الوزير فلان ، حتى تجد وفودا تتقاطر عليه يبتغون قربه ليكون لهم واسطة لدى السلطان : من يريد الترقية فى موقعه ، من يريد موقعا عاليا عما هو فيه ، من يريد أن يدفع عنه أذى ، ويسعد الواقف بباب السلطان وقد تحول وكأنه وزير الظل ، متوهما أن الوافدين إليه يقدرونه لذاته .

وهناك إفراد صفحات الجرائد والمجلات تنشر أخباره ، وآراءه ، بصفة مستمرة ، فيذيع سيطه ، ويتحول إلى مفكر " كبير " وكاتب " عظيم " ، فتتقاطر عليه أجهزة التليفزيون والإذاعة ، وتتوج صوب قبلته ، التحقيقات الصحفية ، وتكثر دعوته إلى الندوات والمؤتمرات ، ويصبح نجما ساطعا فى سماع الفكر والثقافة ، ويصبح على

قوائم الترشيح للجوائز الكبرى ، وينال عددا منها ، كل منها من حين لآخر ، حتى يستمر حماسه ، فيخلص فى الكتابة التبريرية ، لتحلية ما يحدث ، وتزيين ما يتقرر وتجميله ، ويتفنن فى تفنيد ما يثير ضيق السلطان ، لتظل صورته وكأن الزمان لم يجد إلا به سلطانا حكيما ليس له " سمى " من قبل ولا من بعد !!

ناهيك عما كم يكاد لا يحصى من المغانم ..الدعوة إلى اجتماعات القيادة السياسية ، والمؤتمرات الخارجية ، والمهمات العلمية ، ومعظم هذه المغانم وغيرها كثير تبدو كأنها " معنوية " ، لكنها بطريق غير مباشر تكون بابا واسعا لمغانم مادية كثيرة تأتى قانونية و " حلال " !!

وعكس ذلك تماما يحدث لهؤلاء القلة الذين لا يغريهم هذا الطريق .. بل إن الأمر قد لا يقف بهم عند الأبواب الموصدة فى وجوههم على طريق " التلميع " و " السطوة " ، ولا يقف بهم عند حدود برودة شتاء ، ودامس ظلام ، وإنما يكون هناك حرص شديد على تلويثهم بكل السبل ، وخاصة الأقوى حجة ، والأكثر نشاطا وفاعلية ، حتى لا يبدَون أمام الناس وكأنهم " شهداء قضية " . وتتحمس كلاب الحراسة للهجوم ونهش الجسد وقذف الحجارة والطوب على الضحية ، لأن وجود صاحبها خطر عليهم ، فالناس مهما زيف وعيهم ، يستمرون على قدر من ذكاء الفطرة يمكنهم ، أن يقارنوا بين سلوك وسلوك ، وموقع وموقع ، فيكتشفون " المملوك " من " الحر " ، هذا المنافق ، متسول الجاه والنفوذ وقرب السلطان ، وهذا العزوف الذى لا يبتغى إلا وجه الله ووجه الناس ، ومن ثم كان من الضرورى العمل بكل السبل على أن يذهب " الحر " إلى الجحيم ملوثا متهما ، وليس فقط مستبعدا مقصيا ، يعيش فى غيابات جب النسيان والظلام .

لكن التاريخ لا يرحم ... إن لديه من قوة الدليل ، وحجية المنطق ، وعلمية المنهج ما يجعله يكشف المعادن الحقيقية ، فيقذف بالبعض فى صناديق القمامة ، ويسطر بحروف من نور سيرة حماة المبادئ ، الحريصين على نظافة القلب وعزة النفس وعفة اللسان واستقلال الإرادة وحرية الفكر .

فى زمن الخليفة المأمون ، فى العصر العباسى ، ثم فى زمن المعتصم كذلك ، ثارت قضية فكرية كبرى عرفت بقضية خلق القرآن ، ليس مهما أن نتوقف عندها قليلا أو طويلا ، فهى ليست مرادة لنا فى حد ذاتها ، وما يهمنا من الموقف أن صاحب السلطة " الخليفة " رأى رأيا شعر الفقيه الكبير أحمد بن حنبل أنه غير مقتنع له ، بل ويوقع المسلمين فى المحظور فى عقيدتهم . وهنا أيضا ، ليس من شأننا أن نحبذ هذا الرأى أو ذاك ، ولكن لنا أن نتساءل عما حدث نتيجة أن رأى مفكر رأيا خالف رأى صاحب السلطة؟

لقد سجنوا ابن حنبل ، ووضعوا الأغلال فى يديه وقدميه ، ثم أحضروه للخليفة ، وجئ بحامل السياط ، وجرده من ثوبه ، وأوقفوه بين يدى حامل السياط ، فوجه ابن حنبل القول إلى الخليفة :

" يا أمير المؤمنين ! الله الله ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله ، إلا بإحدى ثلاث ..." ، فبم تستحل دمى ولم آت شيئا من هذا ؟

يا أمير المؤمنين ! اذكر وقوفك بين يدى الله كوقوفى بين يديك !!"

لكن الأمير أصم أذنيه ، وأمر به ...

جئ بكرسى ، وأقاموا ابن حنبل عليه ، وقال له واحد من حملة السياط أن خذ بيديك بأى الخشبتين ، فلم يفهم قوله ، فجعل أحدهم يضربه سوطين ، ويجئ الآخر فيضربه سوطين ، ثم الآخر كذلك ...وقام المعتصم إليه ، يدعوه إلى قولهم بخلق القرآن ، فلم يجبه ، فأعادوا الضرب ، ثم جاء إلى الثالثة ، فدعاه فلم يعقل ما قال من شدة الضرب ووطأة التعذيب ، ثم أعادوا الضرب ، فذهب عقل ابن حنبل ولم يعد يحس شيئا من الضرب ، وأرعب هذا الحال الأمير من أمر الفقيه المعذب ، فأمروا به فأطلق سراحه ، ولم يشعر إلا وهو فى حجرة من بيت وقد أطلقت الأقياد من رجله !!

لم يكن هذا الذى حدث موقفا فريدا فى التاريخ ، فصفحاته حفلت - وما زالت - بأمثلة أخرى أكثر من أن تعد وتحصى ، لكن الذى نريد إبرازه مما يتصل بالقضية التى نتناولها ، أن وراء هذا الذى شهده ابن حنبل فرقة من الفرق التى شهدها الفكر الإسلامى ، عرفت فى التاريخ الحضارى بأنها رافعة راية حرية الإرادة ، والتقدم ، والفكر المفتوح ، والمرونة ، حتى أن بعض المؤرخين يصفونها بأنها تمثل " يسار الفكر الإسلامى " !!

أما هذه الفرقة فهى " المعتزلة " ...

أقول الحق ، أننى واحد من الذين حملوا ، خلال فترات طويلة من العمر ، الكثير من التقدير والإعجاب بكثير من آراء المعتزلة ، وإن أمكن التحفظ على بعضها ، لميل خاص بالفعل إلى كل ما يعزز حرية الفكر والتقدم والتحرر من الجمود .

حملت لهم هذا التقدير وذاك الإعجاب منذ أن بدأنا ندرس آراءهم فى قسم الفلسفة بآداب القاهرة ، عام ١٩٥٦ ، وبدأت أجمع الكثير مما كتب عنهم والتهمه التهاما ، ليزداد إعجابى وتقديرى .

وعندما طلب منى الدكتور عاطف العراقى أن أكتب دراسة ليضمنها كتابا تذكاريا عن الراحل الدكتور إبراهيم بيومى مدكور ، سارعت إلى الكتابة عن فلسفة التربية من منظور الاعتزال .

وكذلك شجعت باحثا تلميذا لى فى بداية الثمانينيات ، على أن يجعل هذا موضوعا لرسالة ماجستير أنجزها بالفعل عن فلسفة التربية عند المعتزلة .

إلى أن وقع لى بعد ذلك قراءات حول " الموقف العملى " للمعتزلة عندما أتيحت لهم فرصة القرب من السلطان ..هنا انكشفت القيمة الحقيقية لحاملى راية الحرية والتقدم والمرونة الفكرية .

إن المسألة لا يمكن أن تقف بالمفكر عند حد ما يكتبه وينطق به ، لكن الاختبار الحقيقى له ، عندما يكون فى موقع السلطة ، أو قريبا منها ...

أعرف العديد من مواقف حسن النية ، من حيث أن الإنسان كثيرا ما يرى آراء ، حتى إذا وضع فى موقع السلطة أو قريبا منها ، برزت متغيرات كثيرة تجعله يعيد الحسابات ، لكننا نتوقف أمام " البعد الأخلاقى " بصفة خاصة ، ولا ندخل فى مضامين الفكر نفسه...

كيف يتأتى لمن نادوا بحرية الإرادة أن يكونوا سياطا تلهب ظهور من يقفون من فكرهم موقفا مخالفا عندما وجدوا لهم مكانا على " حجر " صاحب السلطة ؟

ها هنا نجد نموذجا آخر " لمماليك " هذا الزمان !!

إن موقع المثقف هو موقع " نقدى " بحكم وظيفته ..إنه يرصد ويحلل ويصوب ويوجه ، يبرز الثغرات ، ويكشف عن الأخطاء ، وهذا الدور لا يستطيع القيام به حق القيام إلا إذا كان خارج عباءة السلطة ...إلا بأن يخرج من جلباب صاحب السلطة !

ويخطئ من يدعى أن وجوده على باب السلطان يتيح له فرصة التبصير والترشيد ، فهذا أمر ، من المؤكد أنه غير مقدور عليه فى البلدان المتخلفة بصفة خاصة .

إننا نعلم من طبيعة الخبرة السياسية للبلدان المتقدمة ، حيث تكون الكلمة للجماهير حقيقة أن هناك دائما تجمعات من كبار العلماء فى تخصصات مختلفة تحيط بمن يتولى السلطة ...فى مثل هذه البلدان ، يقوم هؤلاء بالفعل بدور أكثر من دور الترشيد والتبصير ، إنهم هم الذين يصنعون القرار حقيقة ، لأن بنية النظم السياسية فى البلدان المتقدمة تتيح لهم فرصة قول الكلمة التى يرون أنها أقرب للحق بغير خوف ، حتى أن صاحب السلطة، وقبل أن يتخذ قرارا ، يسألهم ، ويلتزم كثيرا بما يقولون

لكن فى البلدان النامية ، حيث يقوم النظام على القهر والاستبداد ، فالموقف مختلف بالنسبة للعلماء ، الذين يقفون بأبواب السلطان ، لأن العلم ليست له الكلمة الحقيقية ، وإنما هى البقاء فى السلطة ، وإقصاء الآخر المخالف ، والتنكيل به ، وتصبح مهمة المثقف أو العالم هى : أن يزوق الواقع بالوهم ويزخرفه بالخيال ، أن يفكر فيما يرضى سيده ومفيض النعم عليه ، أن يبرر له فعل ، حقا كان أو كذبا

ومن هنا فإن مثل هؤلاء يشكلون خطرا ، وأى خطر على حاضر الأمة ومستقبلها ، بحكم ما يقومون به من تزييف للوعى ، ومساندة الباطل ، ومواراة أصوات الحق فى غيابات الظلام ، فلا نكتشف ما يكون عليه جسم الأمة من أمراض ، وما ينهش جسدها من فيروسات ..

إنهم مماليك هذا الزمان ... وكل زمان !!

---

* آفاق عربية ، فى ٢٠٠٢/١١/٢١ ، ١٤ ، ٧ ، ١٠/٣١

نفى الآخر

منذ قرون بعيدة ظهرت على مسرح الفكر العربى الإسلامى جماعة شهيرة اسمها " المعتزلة " عُرف عنها انحيازها الواضح للحرية ، إلى الدرجة التى جرت عليها هجوما عنيفا من جماعات التشدد ، بحيث وصل الأمر إلى حد تكفير بعض منهم أو بعض أفكارهم ، ثم جاءت بهم ظروف السياسة المتقلبة إلى أن يكونوا فى حالة تحالف مع السلطة وخاصة فى عهد المأمون زمن الدولة العباسية ، فماذا حدث ؟ تحول أنصار الحرية إلى قوة قهر عنيف لكل من خالفهم فى الرأى بزعم أن ما يرونه هو المصور وحده للحقيقة وأن ما يقوله غيرهم عكس ذلك ، ومن ثم فلا ينبغى السماح له بالوجود ، وكانت محنة ابن حنبل من أشهر المظاهر المشينة لهذه الفترة .

منذ ذلك الوقت برز تساؤل جوهرى : من الذى يمكن أن يزعم أنه وحده الذى يملك الحقيقة ؟ هنا جاء أبو حيان التوحيدى بتشبيهه الشهير بأننا جميعا إزاء الحقيقة كمجموعة من البشر وضعت عصابة على أعين كل منهم تحجب عنه الرؤية الكاملة ، التفوا حول فيل دون أن يدروا وطُلب من كل منهم أن يقول ماذا أمامه ؟ فإذا بهذا يقول شيئا يتفق مع ما استطاع أن يمد يده إليه ليحدس طبيعته ، وذاك يقول قولا آخر ، ، وهكذا ، فجاءت الأقوال مختلفة متباينة ، فمن منهم على صواب ؟ كل منهم ، من حيث موقعه على " درجة " من الصواب ، لكن لو زعم أن ما رآه هو وحده الصواب ، يكون خاطئا أشد ما يكون الخطأ !

وقبل أن يأذن القرن العشرون بالرحيل ، عندما بدأت أجريت الانتخابات الشهيرة بالجزائر فى أوائل التسعينيات ، وبدأت تباشير نتائجها فى الظهور معلنة فوزا لجبهة الإنقاذ الإسلامية ظهر فزع واضح بين صفوف كثيرين فى مصر ، عبر عنه البعض ساعتها فى الحوار الذى يحرص الرئيس على إجرائه بين عدد من المثقفين فى افتتاح المعرض السنوى للكتاب الذى تصادف انعقاده وقت ظهور نتائج هذه الانتخابات .

كان منطق الفزع أن جبهة الإنقاذ هذه ذات رؤية أُحادية تجعلها ترى نفسها هى وحدها مالكة الحقيقة ، وأن ما عداها باطل ينبغى نفيه . وبطبيعة الحال فإذا صح هذا الاتجاه عن الجبهة فإن الفزع من نجاحهم مشروع ، لكن ، بأى وسيلة كان ينبغى مواجهتها ؟ عندما نواجهناها بنفيها من على المسرح ، فنحن إذن نفعل نفس ما كنا نتخوف منه لديها ! قيل ، إنها تحمل السلاح ، فكيف يمكن مواجهتها بالرأى والفكر والقلم ؟ ولا نريد أن نستطرد مع بقية التداعيات ، حيث أن أنصار الجبهة يقولون أنهم لم يكونوا البادئين برفع السلاح ، فضلا عما سربته تقارير متعددة أن عددا غير قليل من

حمامات الدم التى عاشتها الجزائر ما لا يقل عن سبع أو ثمانى سنوات ، إنما هى من فعل عناصر استئصالية فى الجيش والسلطة

ما أريد أن أقوله أن نفس المنطق يعود دائما للظهور من حين لآخر ، وخاصة بالنسبة لكتاب ومفكرين ومثقفين مفروض أنهم يقفون فى صف الديمقراطية والتحرير ، إذ نجد ما يشبه التحريض ، تصريحا أو تلميحا بوقف أو مصادرة أو نفى أو إلغاء ما يصدر عن " الآخر " المباين فى الفكر والمغاير فى الاتجاه بدعوى أن فى السماح به خطر داهم على البلاد ، وفى نفس الوقت ، عندما ينجح هذا الآخر فى مصادرة ما ، تهب عليه العواصف والزوابع بكاء على حرية الفكر المغتالة . وهكذا نجد أنفسنا أمام منطق خطير ، فإذا ما أتحت لنفسك حق نفى الآخر ، فأنت فى التو واللحظة تعطى هذا الآخر مبرر نفيك ، ويتوالى المسلسل ، والنتيجة ؟

النتيجة التى لابد من التسليم بها:لابد أن يكون لكل طرف الحق أن تتاح له فرص التعبير والتمثيل ، وألا يحرض على نفى الآخر ، مهما كان رأيه طالما هناك التزام بوسائل التعبير والتمثيل المشروعة .

---

* الوفد ، فى ٢٠٠٠/٣/٧

استبداد العمالقة !

عندما كنت معيدا فى أوائل الستينيات فى تربية عين شمس كان لنا أستاذ يشكل هرما ضخما من أهرامات التربية فى الوطن العربى .. صاحب شخصية طاغية ، وعلم واسع وغزير ، ذا كاريزما لا يخطؤها أحد ، حتى لقد كنت أنظر إليه فى مجالنا بأنه كان يمثل جمال عبد الناصر التربية .

وكانت لنا زميلة أقدم منى ، باحثة حاصلة على الماجيستير وتعمل بالدكتوراه وعلى صلة وثيقة للغاية بأستاذنا هذا حتى لقد كانت تصحبه ذهابا وإيابا ، وكنت أنظر إليها بقدر من الحسد على هذه الحظوة . وفجأة شاهدت الأستاذ يثور عليها ثورة عارمة ، إلى الدرجة التى جعلته يستطيع أن يجعل العميد يدعو إلى اجتماع لمجلس الكلية فى غير موعده لاستصدار قرار بشطب تسجيل الباحثة لدرجة الدكتوراه ، ولم تكن هناك إلا كليتنا هذه فقط التى يمكن لأحد أن يواصل بها دراساته العليا ، ولم يكتف بذلك بل استطاع أن يجعل مجلس الكلية يقرر رفتها من الكلية !

وتصورت أن لابد أن صاحبتنا قد ارتكبت جريمة فظيعة جعلتها تستحق هذا العقاب المميت حقا ..

ثم عرفنا أن الجريمة الكبرى التى ارتكبتها الباحثة أنها انتسبت سرا إلى أحد أقسام آداب القاهرة رغبة منها فى الاستزادة من العلم ، وكان تعليق أستاذنا : كيف لا تقنع بالدراسة على يديه وتذهب إلى جهة أخرى بزعم أنها تستزيد من العلم ؟ إذ : هل هناك مصدر للعلم يعلو مصدره هو مقاما وعلو شأن ؟!!

تذكرت هذه الواقعة وأنا أقرأ لأحد الصحفيين مسجلا بعض ما حدث خلف الكواليس أثناء تصوير مسلسل بطولة الفنانة العظيمة فاتن حمامة ، ومجمل هذه الأحداث أن فنانتنا الكبيرة " تتحكم " فى كل صغيرة وكبيرة ، بما فيها تغيير اسم المسلسل الذى قدمته به مؤلفته ، وتغيير البطل الذى سيمثل أمامها ، والعديد من الجوانب الأخرى ، مما يحول فنانتنا إلى ديكتاتورة تأمر وتنهى فى كل ما يتصل بالعمل !!

ولا أحد مطلقا ينازع ولو للحظة فى عظمة فنانتنا ، فالمنطق الذى تستند إليه أن العمل كله يرتبط فى أذهان الناس بها ، وهى لها ما لها من قدر عند الجميع ، وتاريخ ناصع ، ومن هنا فلا بد وأن تطمئن بنفسها على كل صغيرة وكبيرة ، وترجمة هذا الاطمئنان التدخل والتحكم فى كل شئ على وجه التقريب !!

والمتتبعون للتاريخ الثقافى الحديث فى مصر يتذكرون كيف أن عظيم الأدب فى الوطن العربى طه حسين عندما كان لا يرضى عن أحد ، فويل له حقا ! لم يرتح للدكتور

زكى مبارك ، فكان ما كان من حرب علنية وخفية على الرجل حتى فى رزقه !وعندما تولى وزارة المعارف سنة ١٩٥٠ كان غريمه فى التعليم إسماعيل القبانى وكيلا للوزارة ، فما كان منه إلا أن نقل أستاذ التربية وكيلا لوزارة الداخلية !

وهناك ما يذكر كذلك عن غضب أم كلثوم ، عملاقة الغناء العربى ، على عبد الحليم حافظ ، فترة من الزمن ، والتسبب فى ضرر له لأنه حاول مرة أن يتصرف تصرف فنان له شأنه الكبير فى أحد احتفالات ليلة ٢٣ يوليو زمن عبد الناصر ، وكانت مشتركة فى الاحتفال ، فاعتبرت ذلك تجاوزا منه عن حدوده ، فهى وحدها الكبيرة والعظيمة ، مصداقا لقول القائل :

إنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب !!

وهكذا نجد أن عمالقة الفن والأدب والفكر ، كل منهم ينظر إلى نفسه باعتباره فريدا فى نوعه ، وهو أمر حقيقى ، لكنه فى بعض المواقف يمارس ديكتاتورية ، وسطوة تجعل من غضبه بركانا يمكن أن يطيح ويدمر من يفكر ولو للحظة أن يثير هذا العملاق أو ذاك .. اللهم احمنا من غضب العمالقة ، وإن كنا نتمنى أن نكون منهم !

---

* الميدان ، فى ٢٠٠٠/٥/٢٣

ثقافة العشوائية !

هذه الثورة التى كانت قد أشعلتها قرية "ميت نما" منذ فترة بسيطة، ثم تكررت فى قرية أخرى ، هى فى صورتها الظاهرة حركة احتجاج عنيف على مصرع ابنة عزيزة أو أكثر من أبنائها ، لكنها لا ينبغى أن تمر هكذا ، فالطرق فى مصر أصبحت تحصد شهريا ما لايقل عن أربعمائة قتيل ، ما دام الإحصاء العام يقول أن متوسط قتلى الطرق لا يقل عن خمسة آلاف فى العام الواحد ، وبالتالى فكم من مآتم تقام يوميا فى طول البلاد وعرضها لنفس السبب ، ثم لا تحدث ثورة احتجاج ، ولا حركة تمرد ، لكنها هذه المرة تجئ باعتبارها حركة من فاض به الكيل ، كما أنها تكشف عن صورة أخرى من صور التفكير العشوائى الذى يحكم الإدارة العامة لهذا للجتمع المصرى ، إذ أسرع مسئولون بتبشير أهل القرية بأنهم سوف يقيمون " جسرا " - كوبرى - على الطريق يجنبهم الوقوع تحت عجلات السيارات ، والسؤال هو : هل لابد أن يقوم الأهالى بثورة حتى تحقق الدولة أحد أبجديات الطرق ؟ وكم عام مر على هذا المكان وتعرض أهله لحوادث الطرق ؟ وهل هذا هو المكان الوحيد فى مصر أم أن هناك غيره يعيش نفس المأساة ، لكن أهله لم يقوموا بعد بثورة تزعج الجبل الحكومى وتدفعه إلى التحرك ؟

إن هذا الحادث يترافق مع مسلسل يومى آخر رأيناه على صفحات جميع الصحف عدة أسابيع ، ألا وهو ما سمى " بأزمة أنابيب البوتاجاز " ، إذ ظهر علينا الوزير المسئول بكل حكمة يحسده عليها سقراط وأفلاطون وأرسطو وسائر حكماء البشرية ، مفسرا ما حدث بأنه يرجع إلى تزايد الاستهلاك بمعدلات فاقت التوقع ، فضلا عن أساليب سوء الاستغلال !! إنه - كما يقولون - عذر أقبح من ذنب ، وهو سلاح لابد من شهره فى وجه الوزير الحكيم، فأن يفوق الاستهلاك حدود ما كان متوقعا ، فهذا إيذان بأن هذا المسئول لا يحسن أبجديات المسئولية عن خدمة جماهيرية أساسية ، ألا وهى أن يكون صاحبها ذا تفكير " تحسبى " ، أى ذا عقلية تحسن التوقع والحساب لما هو آت من أيام فى نطاق ما هو مسئول عنه ، وما دام المعروض أقل من الطلب فلابد وأن تبرز مظاهر سوء الاستغلال والمعاناة !

إن هذا وذاك ليسا إلا مثلين ، ضمن أمثلة كثيرة ، تشير إلى النهج العشوائى فى التفكير الحاكم ، والذى من شأنه أن يفرز إلى سوق الأمة فكرا عشوائيا وثقافة عشوائية . إن البعض عندما يشير إلى ألوان مختلفة من التفكير ، وتباينات ضخمة من الاتجاهات يتصور أن هذا مظهر " للتنوع الثقافى " والذى هو أمر محمود يغذى العقل

الوطنى بغذاء ثقافى متنوع يزيده ثراء وقوة ، لكن هذا الذى نشير إليه ونستهجنه هو تلك العشوائيات الفكرية التى تصدر صدفة ، وبغير تخطيط وتدبير ، وتفتقد المنطق ، ويغيب عنها الاتساق والتآزر الكلى العام .

أعد قراءة الدستور ، فسوف تجد العديد من النصوص التى تؤكد " النهج الاشتراكى " الذى لابد أن يقوم عليه الاقتصاد المصرى ، والذى لابد أن يقوده القطاع العام ، ثم أعد النظر فى ما يجرى على الساحة الاقتصادية المصرية ، فسوف تجد هرولة نحو اقتصاديات السوق والنهج الرأسمالى !

ثم أعد مرة أخرى قراءة الدستور فسوف تجد نصا يؤكد أن الشريعة الإسلامية هى مصدر التشريع فى مصر ، ثم استقرئ ما يجرى على ساحة تلك المجالات الثلاث التى تصوغ عقل الناس ووجدانهم : التعليم ، والثقافة ، والإعلام ، فسوف تجد عشرات الأمثلة التى تؤكد العكس ، أقول هذا بغض النظر عن ارتياح القارئ لهذا النص أو عدم ارتياحه ، فقط ما أريد أن أنبه إليه هو النهج العشوائى للعقلية الحاكمة ، وكيف أنها بهذا " تؤسس " لفكر عشوائى ، وتزرع بذور عشوائية ثقافية ، وويل لأمة ذات عقل عشوائى التفكير!

---

* الميدان ، فى ٢٠٠٠/٤/٤

منذ أن بدأت أدرس الفلسفة بآداب القاهرة وسط الخمسينيات ، بهرتنى - مثل كثيرين - تلك الكتابات الغزيرة المتعمقة للدكتور عبد الرحمن بدوى والتى لم تكن تقتصر على مجال بعينه فى الفلسفة ، إلى الدرجة التى جعلت معظمنا ينظر إلى هذا الرجل وكأنه أسطورة فى عالم الفلسفة ، ولم تتح لى الفرصة أبد أن ألقاه مباشرة ما يقرب من عشر سنوات ، أى حتى وسط الستينيات ٠

فى ذلك الوقت كنت فى زيارة لزميلى الذى كان معيدا بقسم الفلسفة بآداب عين شمس فى ذلك الوقت (د٠محمود رجب) ، وكان الدكتور بدوى رئيسا للقسم ، فأردت أن أنتهز الفرصة وأحقق حلما من أحلامى بالتعرف المباشر إلى الرجل ، فطلبت من د٠رجب أن يقدمنى إليه ، وفوجئت به ينصحنى أن أصرف النظر عن ذلك ، وألححت عليه ، فإذا به يكرر نفس النصيحة ٠وبطبيعة الحال أخذت ذلك على أنه صورة من صور المزاح ٠ولم يكن أمام د٠رجب إلا أن دخل بى على الدكتور بدوى فى مكتبه وقدمنى له ، فإذا بأستاذنا يمد لى أطراف أصابعه ، دون أن يلتفت أو ينظر إلى ، ثم يسحب يده بسرعة ، فضلا عن علامات "قرف" وضيق بدت على وجهه وكأنه اضطر أن يلمس إنسانا جربانا أو ذا مرض معد ٠ وعندما خرجت من عنده إذا برجب يستغرق فى الضحك وعلامات الشماتة على وجهه ، وهو يقول : مش قلت لك ؟ ولم أنطق ببنت شفة ، ولسان حالى يردد المقولة العربية الشهيرة : سمعك بالمعيدى خير من أن تراه !!

وأسعدتنى الظروف أن أُدعى أستاذا زائر لجامعة الكويت عدت مرات فى سنوات مختلفة ، وكان د٠بدوى أستاذا بها ، وإذا بأحاديث شتى أسمعها من هذا وذاك خاصة القريبين منه ، كلها تصب فى خانة البخل الشديد ، والإهمال فيما يتصل بالشأن الشخصى ، والحياة العامة والعلاقة بالناس ٠

تداعى كل هذا إلى ذهنى عندما قرأت تعليقات شتى عما كتبه د٠بدوى فى مذكراته من أحكام بدا أنها بالفعل غريبة ومتطرفة ومتعسفة ، مما جعل البعض يكيل له التهم ، ويحتد فى الهجوم عليه ٠

إننا قد لا نوافق الرجل على أحكامه على رموز مصر ، بل والوطن العربى الثاقفية مثل طه حسين والعقاد وزكى نجيب محمود ، ولا أحكامه على جمال عبد الناصر وبعض السياسيين الآخرين ، بل وقد نصل فى الاختلاف معه إلى زاوية يمكن أن تصل إلى مائة وثمانين درجة ، لكن ذلك لا ينبغى أن يخولنا أبدا التنديد بالرجل والسخرية منه وتسفيه آرائه ، وننسى عبقريته الفلسفية ٠ إنه نفس المرض الذى يطل علينا برأسه كلما وجدنا

نفسنا بصدد رأى أو موقف لطرف ، لا يعجب ولا يرضى طرفا آخر ، وهو الأمر الذى وصفته أكثر من مرة بأنه هو نفسه نهج التكفير الذى اكتوينا منه سنوات وسالت بسببه دماء كثيرة !

هل نذكر ما نشره رجاء النقاش عن ذكريات نجيب محفوظ ؟ قامت فى وجه الرجل زوبعة كبيرة وطويلة خاصة بالنسبة لآءارئه فى ثورة يوليو ، لأننا جميعا كنا - وما زلنا - مبهورين بعبقريته الروائية ، وهذا هو مجال إبداعه وعظمته ، وحاولنا أن نقيس آراءه السياسية بنفس المعيار فظهر أمامنا بصورة غير مشرفة !

وأذكر بهذه المناسبة أنه عندما عرض مسلسل زينب والعرش عن رواية لفتحى غانم كتب أحمد بهاء الدين فى العربى الكويتية ، أن عظمة فتحى غانم لا تظهر إلا فى الأدب ، وأنه طالما نصحه بالكف عن الكتابة فى السياسة ليتفرغ لكتابة القصة لأن كتاباته السياسية لم تكن أبدا على نفس المستوى .. وهكذا

فمتى نتوقف فى تقييم المفكر أو الأديب أو العالم على مقدار عبقريته فى تخصصه ، غاضين الطرف عن مواقفه فى مجالات أخرى ، وخاصة السياسية ؟

---

* صوت الأزهر ، فى ٢٠٠٠/٥/١٢

منذ أن عرضت رائعة أستاذ الأدب التلفزيونى بغير منازع المبدع أسامة أنور عكاشة (ليالى الحلمية) تفجر نقاش حول علاقة الدراما التلفزيونية بالتاريخ والإيديولوجيا ووجهت إلى مبدعنا العظيم اتهامات بأنه " يلوى " ذراع أحداث التاريخ ليطوعه فى الاتجاه الفكرى الذى يؤمن هو به ، وكان الدفاع الأساسى لمبدعنا هو أنه ليس مؤرخا ، وإنما " فنان " و " أديب " له رؤيته وله حق الاختيار بين وقائع الأحداث التاريخية بما يخدم مسار الدراما كما يراها .

وكان هذا النقاش يتكرر كلما عُرض جزء من المسلسل الكبير ، وهدأ بتوقف تتابع الأجزاء ، إلى أن أثير مرة أخرى بعد عرض رائعة محفوظ عبد الرحمن عن أم كلثوم ، التى أثبتت أننا أمام عملاق آخر من عمالقة الأدب التلفزيونى ، خاصة وأن أديبنا المبدع قد تخصص فى الدراما التاريخية ، فهو صاحب بوابة الحلوانى ، وفيلم ناصر ٥٦ . وقد تناول اتهام محفوظ جانبين ، أحدهما يتعلق بإهمال بعض الملحنين والأحداث التاريخية ، والثانى ببعض التفاصيل التاريخية الجزئية غير الصحيحة .

والحق أننا إذا تناولنا ما كان أثير مع عكاشة وكذلك مع محفوظ فسوف نجد أن الاتهام " بالناصرية " هو مما يدخل فى باب " شرف لا أدعيه وتهمة لا أنكرها " فبالفعل من حق أى إنسان ،(فما بالنا بالمبدع ؟) أن تكون له اختياراته الفكرية ، خاصة إذا كان الاختيار يتصل بفترة مشرفة ، حيث كانت فترة الأحلام وتصاعد الأمال والمد الوطنى والعروبى . ومهما ادعى الكاتب من التزامه " الحيدة " و " الموضوعية " وسعى جادا مخلصا فى تحقيق هذا الادعاء ، فهذا شبه مستحيل عملا وواقعا لأن الهوية الفكرية منهج حياة ، بل هى بصمة الشخصية وليست قميصا يمكن خلعه فترة ، وإعادة ارتدائه مرة أخرى !

والتحيز الفكرى يلعب دوره المؤكد فى عملية تفسير الحوادث التاريخية ، فعندما يكتب أديب عربى عن الناصر صلاح الدين ، أو أى فترة من فترات الحروب الصليبية ، فسوف يختلف تفسيره بالتأكيد عن تفسير كاتب آخر إنجليزى أو فرنسى . ويحدث نفس الشئ بالنسبة لصور الصراع العربى الإسرائيلى ، بل وبين كاتب عربى وكاتب عربى آخر ، يختلفا فى الرؤية الفكرية ، وبالتالى فمن حق مبدعينا عكاشة ومحفوظ أن يشيدا - عن طريق الأحداث والحوارات - بالفترة الناصرية وأن يفعلا العكس بالنسبة للفترة الساداتية . .

كذلك فإن التحيز الفكرى يمكن أن يظهر عند عملية اختيار الأحداث نفسها ، حيث أن الإشارة إليها جميعا أمر مستحيل عملا ، فضلا عن عدم ملاءمته العمل الدرامى ٠ ومما لا شك فيه أيضا أن عملية الاختيار والانتقاء تشكل فى مجملها توجيها للرأى وتلوينا للأحكام ، وهكذا عندما نرى عملا مثل فيلم الكرنك المأخوذ عن رواية نجيب محفوظ يركز على عمليات التعذيب والقهر التى كانت تمارسها سلطات الأمن فى الفترة الناصرية ، لابد وأن يخرج المشاهد بمشاعر سلبية تجاه هذه الفترة ، بينما إذا شاهد ناصر ٥٦ لابد أن يخرج ملؤه الفخر والاعتزاز ، فالتاريخ " حمال أوجه " وهو كقاع البحر ، فيه اللؤلؤ والأسماك ، كما أن فيه الصخور والأحجار !

لكننا فى نفس الوقت لا ينبغى أن نسمح لتحيزنا الفكرى (الذى هو مشروع كما أكدنا) الوقوع فى ثغرات ، أرجو أن يتسع صدر مبدعينا للإشارة إليها فى مقال قادم خاصة وأن هذه الإشارة تنطلق من موقع محب ، بل وأكاد أقول " عاشق " يرى فى عمليهما " ذروة إبداع " يفزع من أى شائبة يمكن أن تقلل من نصاعة ثوبهما الأبيض ٠٠

إذا سلمنا بأن مبدع العمل الدرامى هو بالفعل ليس مؤرخا يلتزم بحرفية ما وقع من أحداث ، إلا أننا نرى ضرورة الحذر من أمرين :

أولهما : إسقاط أحداث كبرى تشكل علامة على مسار التاريخ ، وعلى سبيل المثال فمما لا شك فيه أن لمبدعنا الكبير عكاشة أن يرى ما يراه تجاه جماعة الإخوان المسلمين من صور إدانة ، فهذا حق لا ينبغى المنازعة فيه أبدا ، لكن من حيث وقائع التاريخ وأحداثه فلا يستطيع أن ينكر أنهم احتلوا مساحة كبيرة وخطيرة فى صفحاته ، وبالتالى فكيف يكون المسرح الأكبر للعمل الدرامى منطقة مشهورة من مناطق القاهرة ، كانت هى فى نفس الوقت " المركز الرئيسى " لهذه الجماعة ولا يكون له ولها وجود فى ظهير الأحداث الدرامية ، ومرة أخرى بغض النظر عن الرأى فى هذه الجماعة سواء بالتحسين أو التقبيح ؟ أطرح هذا التساؤل خاصة وأن الفرصة لن تتاح " لآخر" يرى رأيا مخالفا أن يعرض له عمل تلفزيونى جيد يسير فى الاتجاه المعاكس ! ومن مبادىء الديمقراطية أن يتساوى حق كل من طرفى الرؤية الفكرية ٠

ونفس الشئ بالنسبة لمسلسل أم كلثوم ، فاختيار ملحن واحد من هذا الجيل الجديد (وقتها) الذى لحن لأم كلثوم منذ الخمسينيات كمحمد الموجى وكمال الطويل يمكن ألا يكون مقبولا ، فالموجى لحن لها عدة ألحان ، وإذا كان الطويل لم ينل مثل هذا الحظ لكن يكفى لحنه الشهير " والله زمان يا سلاحى " ، وهل هناك دليل على أن هذا اللحن قد شكل علامة فى تاريخ مصر أقوى من أنه أُتخذ سلاما جمهوريا ؟

ثانيهما ، الوقوع فى بعض الأخطاء التاريخية ، حتى ولو كانت تفاصيل جزئية ، ومثال ذلك ما أشار إليه مرة الأستاذ صلاح منتصر تعليقا على مسلسل أم كلثوم ، أذكر منها " الملابس المدنية " التى كان يرتديها الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ،وكذلك ما جاء فى بريد الأهرام منذ أسبوعين على وجه التقريب ، مثل القول فى المسلسل بأن فاروق كان ملكا لمصر والسودان فى حفل أقيم فى الأربعينيات بينما مثل هذا اللقب لم يعمل به إلا بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦ فى أكتوبر ١٩٥١، فلا ينبغى أبدا الدفع بأن هذا عمل درامى وليس تسجيلا تاريخيا .

ومع الأسف لا تسعفنى الذاكرة الآن لأشير إلى مسلسل تاريخى آخر عرض منذ عامين هو " هوانم جاردن سيتى " فقد امتلأ بعدد غير قليل من الأخطاء التاريخية خاصة بالسنوات الأولى من ثورة يوليو بالنسبة لتتابع بعض الأحداث . ولم تحظ هذه المسألة بالإشارة وقت عرض المسلسل أو بعد انتهائه ، ربما لأنه لم ينل مثل ما نال مسلسل أم كلثوم من سعة انتشار . وحتى ندرك خطورة الأمر لنتخيل أن نجيب محفوظ مثلا ، فى الثلاثية ، وهو يشير إلى عملية نفى سعد زغلول فى ثورة ١٩١٩ لو قال أنها كانت لعدلى يكن وليست لسعد ، فهل يجوز الاحتجاج بأن هذا عمل أدبى لا يلتزم بما يلتز به المؤرخ المحترف ؟

إن تشديدنا على هذا هو أن التاريخ بالنسبة لكثيرين يعد مع الأسف الشديد مجالا ثقيل الدم ، نتيجة ظروف عدة تتصل بسوء تعليمه فى مدارسنا ، مع أن له ما له من دور خطير فى تشكيل الوجدان الوطنى ، والأعمال التلفزيونية التى تشير إلى أحداث تاريخية ويبدعها نوابغ مثل عكاشة ومحفوظ ، إذ تحظى بهذا الانتشار المذهل ، فإنها ترسخ فى الوجدان الشعبى العام معلومات ومعارف يكون له دور فعال فى تشكيل اتجاهات وتكوين أحكام أكثر مما تفعله عشرات الكتب والمقررات فى عديد من سنوات التعليم . هنا تبلغ المسئولية ذروتها ، حتى لقد يتطلب الأمر من المبدع أن يتروى بعض الشئ فى اختياراته وتفسيراته ، بحيث لا يكون المعيار الوحيد هو الشروط والمواصفات الفنية للعمل ، فضلا عن الظهير الفكرى للكاتب .

---

* الميدان ، فى ٢/٢٩، ٢٠٠٠/٣/٧

مولد سيدى عبد الحليم !

لابد لى أن أقرر بادئ ذى بدء أن كاتب هذه السطور ممن يطربون لسماع الموسيقى والغناء إلى حد كبير ، وأنه كذلك ممن يؤمنون بالموهبة الفذة التى تجلت فيما قدمه عبد الحليم حافظ ، ولا عجب فى ذلك ، فنحن من جيل أطرب شبابه صوت هذا الرجل وأغانيه ، وما زال حتى هذه اللحظه يشجينا ويطربنا ، خاصة بالمقارنة مع هذا الغثاء الذى ابتلينا به فى السنوات الأخيرة تحت عنوان الأغانى الشبابية .

صرخة الاحتجاج إذن التى يحملها هذا المقال موضوعها " منطق الزفة " أو " الهوجة " الذى ما فتئ يحكم العديد من تصرفاتنا عندما نريد تكريم مبدع أو زعيم راحل أو على قيد الحياة ، فليس معقولا أبدا أننى إذا ما أدرت مفتاح الراديو على أية إذاعة مصرية ألا أجد إلا حديثا مكررا طوال أكثر من عشرين عاما عن عبد الحليم حافظ لا يحظى بمثله عباقرة غناء وطرب آخرون لا يقلون عنه قامة وقيمة .وليس من الحكمة فى شئ ألا أدير مفتاح التلفزيون على أية قناة مصرية ثم لا أجد من أغانى أو من حوارات إلا ما يتغنى بمعجزة عبد الحليم حافظ ، إلى الدرجة التى أخشى معها أن يؤدى هذا " المولد " إلى الإساءة لهذا المطرب العظيم وهو عند الرفيق الأعلى وفقا للمثل القائل : الشئ إن زاد عن حده ينقلب لضده !!

أقول هذا وفى ذاكرتى العديد من كبار المطربين والموسيقيين الذين تمرون ذكراهم فلا يحفل بهم أحد ، وإن حظى بشئ من الاهتمام فهو قدر لا يصل إلى جزء مما يصل إليه الأمر بالنسبة لعبد الحليم ، فهناك فريد الأطرش ومحمود الشريف ومحمد عبد المطلب وليلى مراد ونورالهدى ومحمد الكحلاوى وعبد الغنى السيد ورياض السنباطى ومحمد القصبجى وزكريا أحمد وغيرهم كثيرون .

لكن المأساة تبرز أكثر عندما نصل إلى فئة الزعماء الوطنيين الذين قادوا مسيرة الأمة فى ظروف غاية فى الدقة والاضطراب! فكم مرة احتفلنا بمصطفى كامل أو أحمد عرابى أو سعد زغلول أو مصطفى النحاس ومن سار على دربهم ؟ وهناك قادة وزعماء آخرون لم يتولوا الحكم ، بل لقد أصابهم ظلم كبير ، مثل حسن البنا وأحمد حسين . وفضلا عن هذا وذاك فهناك زعماء اقتصاد يأتى على رأسهم العبقرى الشهير طلعت حرب الذى ذكرنا به نسلسل أم كلثوم ، ولولاه لظل هذا المصرى العظيم تلفه ستائر النسيان !

وماذا أقول عن صف طويل من علماء الأمة ومفكريها ؟ هنا نصل إلى ذروة المأساة حقا ، فهناك قائمة طويلة من علماء الأزهر الشريف : محمد عبده ، المراغى ،

الظواهرى ، البشرى ، مصطفى عبد الرازق ، شلتوت ، الخضر حسين ، عبد الحيم محمود ، أين هم من احتفالاتنا بقادة وعباقرة الأمة ؟ وصف طويل من المفكرين : أحمد لطفى السيد ، وعباس العقاد ، وطه حسين ، والرافعى ، والمنفلوطى ، وزكى نجيب محمود ، وهيكل ، ومحمود تيمور ، بل ومن العلماء : إسماعيل القبانى ، وعلى مشرفة ، وأحمد زكى ، والقوصى وشفيق غربال ... وغيرهم وغيرهم !

ولا أريد أن أقارن بأثر هذا العالم والمفكر بهذا الفنان أو ذاك على مسيرة الأمة فهذا حديث مؤلم حقا .. لقد شعرت بألم شديد منذ أيام وأنا أقرأ عن واحد ممن يدعون بأنه مطرب بأن أجره قد وصل إلى عشرات الألوف من الجنيهات فى الليلة الواحدة (لا تزيد طبعا عن ساعة) مقارنة بأجر " أتخن " عالم أو مفكر فى مصر طوال شهر كامل ، فلما همست بكلمات أسى لأحد الأصدقاء ، قال : لا تعجب فرغبة الزبون هى التى تحدد قيمة السلعة ، فهل أمتنا تريد رقصا وطبلا وزمرا أكثر مما تريد من نظريات وآراء وأفكار بحيث ارتفعت أسعار الفئة الأولى ، وما زالت توالى الصعود ، وهبطت أسعار الثانية ، وإن ارتفعت ، سارت بسرعة السلحفاة ؟

---

* صوت الأزهر ، فى ٢٠٠٠/٤/٧

حوارى الفكر الفرعية

فى المعارك العسكرية هناك " تكتيك " مشهور ، تجد فيه الخصم يحرص على شغل جنودك من جهة الجنوب مثلا بينما هو يعد للهجوم من جهة الشمال ، وأمر مثل هذا مقبول ومشروع فى مثل هذا المجال ٠ لكن فى الحوارات العلمية والفكرية ، ليس هناك خصم وصديق ، فالجميع يشتركون فى رغبة الوصول إلى هدف مشترك ، لكن ماذا تقول فى هذا الغرام العربى فى " جر " المتحدث إلى " حارة " فرعية لتستقطب الحديث فى معظمه وتُترك القضية الأصلية ؟ !

فى الثامن عشر من أبريل كنت أرأس جلسة ندوة ، ضمن فعاليات مؤتمر دعت إليه كلية التربية بجامعة أسيوط ، وكان موضوع الندوة آفاق جديدة لتطوير كليات التربية ، وقلت أنه ربما يكون مفيدا أن أقدم للأحاديث التى سيلقيها متحدثو الندوة بإطلالة تاريخية عن بداية نشأة مؤسسات إعداد المعلمين ، وكان مما جاء فى حديثى الإشارة الجزئية (من بين جزئيات أخرى) إلى الحرب الخفية بين ما كان يعرف بمدرسة المعلمين العليا والجامعة المصرية ، وأن د٠طه حسين كان لا يؤمن بأهمية كليات المعلمين ويسخر منها ، وهذه الحرب ما زالت قائمة حتى الآن وإن تزيت بأزياء جديدة ٠

ومن الواضح أن الجزئية الخاصة بموقف طه حسين لا تقع أبدا فى صلب المؤتمر ، فضلا عن موضوع الندوة ، وإنما هى -مرة أخرى- تمهيد تاريخى لا أكثر ولا أقل ، فإذا بزميل كريم ينبرى ليسوق دفاعا مجيدا عن طه حسين ، مصنفا إياى بأنى من أنصار إسماعيل القبانى الذى كان الطرف الآخر فى معارك طه حسين فى التعليم (ولم يكن هذا دقيقا تماما)، ثم إذا بزميل آخر يكمل السير على نفس الطريق ويسوق حديثا ثانيا دفاعا عن طه حسين أمام ما تصوروه هجمة عليه !

ساءنى هذا أشد ما يكون السوء ، ذلك أن حديثى لم يكن " بحثا " يقوم على الاستقصاء والتحليل ثم إصدار الأحكام للتقييم ، وإنما وقفت عند حد " الرواية " ، أو ما يسمونه بالتأريخ التسجيلى دون تحسين أو تقبيح ، وبالتالى فلم يكن الأمر يتطلب تضييع الوقت فى دفاع غير مطلوب عن مفكر عملاق لم أتصور أبدا أن أضعه فى قفص اتهام ٠ وفضلا عن ذلك ، فموضوع الندوة يتعلق " بالمستقبل " فكيف ينقلب إلى مناقشة حول الماضى ؟ إنها قضية أكل عليها الدهر وشرب كما يقولون ، فكم من صفحات سودت ليشهد الجميع معارك فكرية طاحنة بين طه حسين وإسماعيل القبانى فيما عرف بقضية الكم والكيف فى التعليم ، وغيرها من المسائل المتصلة ، ومر الآن ما يقرب من ستين عاما على هذه المعارك ، واستنفذت أغراضها وتبين للجميع أن المسألة لا يمكن أن

تخضع لمنطق " إما .. أو " ، وانتهت القضية تماما ، لكننا لا نحسن دخول المعارك العلمية وإدارتها !

وعلى الفور تذكرت مؤتمرا آخر كنت قد حضرته فى الأردن خاصا بالتربية الإسلامية وذلك فى عام ١٩٩٠، وكان أحد منطلقات القضية التى أتحدث عنها هى أن الفكر يعكس إلى حد كبير جملة من المتغيرات المجتمعية ، وكان من الأمثلة التى أردت الاستشهاد بها ، المعركة التى كانت قد دارت حول تحريم الاشتغال بالفلسفة فى أحد العصور الإسلامية ، فإذا بالمناقشة التى أعقبت إلقاء بحثى تترك القضية الأصلية وتدور حول حرمة أو تحليل الاشتغال بالفلسفة !

وهكذا نرى أننا " كلنا فى الهم شرق " ، مما يشير إلى سمة مؤسفة فى العقل العربى تجعله لا يتجه مباشرة إلى الموضوع الرئيسى ، ويشغل نفسه بالجزئيات ويلف ويدور فى الحوارى الفرعية !!

• الوفد ، فى ٢٠٠٠/٧/٥

كيف ضاع الحب يا ولدى ؟

تضطرنى الظروف أحيانا أن أستقل بعض وسائل النقل العام ، وعلى الرغم مما فيها من مشقة إلا أنها فرصة ضرورية لمشاركة فئات كثيرة من الناس والإحساس بهم ، حيث أن " السيارة " تؤدى بالتدريج إلى قدر من الانفصال الشبكى بين عموم الناس وبين مثلنا ممن نشأوا فى القرية ، ثم أفاء الله عليهم بما مكنهم من أن يعيشوا ذلك المستوى الذى اصطلح أهل الطبقة المتوسطة أن يصفوه " بالستر " ، وكثيرا ما أستمد أفكارى من مثل هذه الجولات ، مثلما يرى القارئ اليوم عن موقفين متماثلين ، دلالتهما واحدة.

الأول كان فى مترو الأنفاق حيث كنت آتيا من " المرج " ، وباعتبارها " أول الخط " فقد كان يسيرا أن أجد مكانا خاليا ، لكن ، ما أن جاءت المحطة التالية " عزبة النخل " حتى ازدحمت العربة ووجدت سيدة تحمل طفلا صغيرا على صدرها لم تجد مكانا فظلت واقفة به ، ولأننى كبير فى السن حيث تجاوزت الستين ببضع سنوات ، وأسير مستخدما " عكازا " طبيا ، فقد انتظرت أن يقوم لها أحد الرجال الجالسين بجوارى ، وهم فى الأربعينات عمرا ، لكن ، لم يتطوع أحد بذلك ، فما كان منى إلا أن قمت تاركا مكانى لها ، وهى ترفض بشدة ، لأن حالتى واضحة ، لكنى لم أتنازل عن موقفى مصرا أن تجلس بدلا منى ، وتوقعت أن يحرج موقفى هذا بعضا من أصحاب العافية من الجالسين ، فيبادرون بالتنازل عن مكانهم ، فلم يحدث !!

الثانى ، كان فى " مينى باس " ، حيث ركبته من ميدان عبد المنعم رياض ، ولأنه أيضا أول الخط ، فقد تيسر لى كذلك أن أجد مكانا مريحا ، وعند محطة الإسعاف ، صعد رجل فى العشرينات من العمر يحمل على كتفه طفلا نائما فى حوالى العامين من عمره ، وكان يجلس بجوارى شابان لا يزيد عمر الواحد منهما عن عشرين عاما على وجه التقريب ، تبدو عليهما مظاهر الفتوة والعافية ، والمرح . ولأن الحافلة تطيح بالواقفين أحيانا إلى أمام عند القيام ، وأحيانا إلى الخلف عن التوقف ، فقد أشفقت على الرجل من استمرار الوقوف حاملا طفله ، وانتظرت أيضا أن يقوم له أحد الشابين ، فلم يحدث ، فما كان منى إلا أن تركت مكانى للرجل داعيا له بالجلوس ، والرجل يستنكر ، ذلك فقد كان غاية فى بساطة الحال وهو يرانى أفنديا محترما ، " عجوزا " يتوكأ على عكاز طبى ، وصممت على أن يجلس بالفعل مكانى !

لست أريد أبدا أن أسجل بهذين الموقفين " كرما أخلاقيا " منى ، ذلك أن ما فعلته إنما هو مجرد نموذج لأخلاقيات تربت عليها أجيالنا نحن كبار السن جميعا تشير إلى روح من

التكافل الاجتماعى بين أفراد الأمة ، وإلى تلك الروابط التى نسميها الحب والمودة والتراحم ، فى الوقت الذى كان الجهل يشيع بيننا والتخلف ، وهؤلاء الجدد من الشباب ، يعيشون صورا من التقدم لم نكن نحلم بها فى شبابنا ، وينعمون بالعيش فى عصر يتدفق عليهم بالمعارف والمعلومات من خلال مالا حصر له من وسائل الاتصال ، فهل هناك علاقة عكسية بين عصر المعلوماتية وبين قيم المروءة والحب والتراحم ، وإيجابية بين هذه القيم وبين عصر التخلف والجهل ؟ لا أظن حقيقة .

القضية تحتاج إلى مناقشة واسعة حقا وتحليل لا يتحمله حيز المقال ، خاصة أن النموذجين الذين حكيت عنهما تستطيع أن تسمع أمثلة لهما من عشرات الناس فى أماكن ومجالات متعددة .. حتى فى مجال " الرقص الشرقى " أتذكر حديثا لتحية كاريوكا أخذت تندب فيه حال العلاقات بين الفنانين فى العصر الحالى مقارنة بما كان فى الأربعينيات - مثلا - ، وكان التعليل السريع : " معدش فيه حب بين الناس " ، وأن الشعار الذى يرفعه كل واحد الآن هو " ياللا نفسى " . لكن هذا ليس " تعليلا " يفسر المظاهر القائمة بالرجوع إلى أسبابها ، وإنما هو " نتيجة " ، حيث يظل السؤال قائما : ولماذا ضاع الحب بيننا ؟

• الميدان ، فى ٢٠٠٠/٣/٢٨

خرافة الهوية فى عصر الكوكبية !

الدكتور مراد وهبة أستاذ الفلسفة الشهير بتربية عين شمس يطرح فكرا ، ومن ثم فهو يغرى بالمناقشة ، مهما كان هذا الفكر مناقضا إلى حد كبير لما نؤمن به ، وأستاذنا فيما يبدو ، قد تعود على أن يصدم مستمعيه بما يسوقه من آراء ، لكن ميزته الكبرى حقا أنه لا يغضب ممن يرى غير ما يرى ولا ينظر إلى الجدل على أنه مبارزة شخصية بين كرامتين ، بل إنه كثيرا ما يقابل الهجوم الفكرى بابتسامته التقليدية ، ولسان حاله يكاد يقول " لكم دينكم ولى دين " أقصد لكم فكركم ولى فكرى !

كان الحديث فى ندوة الجمعية المصرية لتعريب العلوم ، حيث كان الموضوع هو (اللغة والهوية) ، وكان مما تردد على لسانى فى هذه الندوة وكذلك على لسان زميلى د٠محمود الناقة أستاذ المناهج وطرق التدريس أن اللغة تعبر تعبيرا صادقا عن الهوية الثقافية ، ومن ثم فإن التفريط فى اللغة العربية إنما هو الطريق إلى فقدان الهوية العربية الإسلامية ، وعرفت الهوية بأنها أن يكون الشئ هو هو وليس شيئا آخر ، مريداً بذلك أن أؤكد على ضرورة الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية بالمحافظة على ما يميز هذه الهوية عن غيرها ٠ وقد استندت فى ذلك إلى تعريف المعجم الفلسفى الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة حيث يؤكد أن الهوية هى " حقيقة الشئ من حيث تميزه عن غيره " ، وقد تبنى المعجم الوسيط للمجمع نفس هذا التعريف ، فقال أيضا عن الهوية أنها " حقيقة الشئ أو الشخص التى تميزه عن غيره "٠

لكن أستاذنا الكبير بارع فى استخدام مهارات الجدل الفلسفى فيضع مقدمات تبدو أنها لا بأس بالنسبة للجمهور العام ، ثم يستولد منها نتائج تطوح بالمستمع أو القارئ بعيدا ، والمشكلة أن الكثرة الغالبة من القراء أو المستمعين قد لا يكونون على دراية كافية بمثل هذه المهارات فيقعون أسرى هذه النتائج ، وأذكر بهذه المناسبة أن د٠مراد كان قد كتب فى مجلة (الطليعة) فى أول السبعينيات تعليقا على كتابى فى الفلسفة الذى قرر على طلاب الثانوية العامة فى ذلك الوقت ، وثارت بصدده مناقشات واسعة فى معظم الصحف والمجلات ، مقدما حديثه بتساؤل : هل يمكن تربيع الدائرة ؟ والإجابة لابد أن تدفع القارئ إلى النفى ، لكنه يستطرد مطبقا ذلك على ما كتبت : " يقول الكتاب (كذا خاصا بموقف الميثاق من هذه القضية الفلسفية أو تلك) " ، ولما كان الميثاق ليس كتابا فى الفلسفة ، فهذا إذن يدخل فى عملية تربيع الدائرة ، وغاب عن أستاذنا فى ذلك الوقت أن ليس المؤلف هو القائل بهذا وإنما هو المنهج الرسمى الذى يعبر عن السلطة التعليمية ولم أكن سوى شارح ومفصل لهذا المنهج !

وقد أشار أستاذنا إلى أن ما سمعه عن مفهوم الهوية إنما يعكس منطق أرسطو القائم على قانون عدم التناقض ، بينما هو يؤمن بالمنطق الدياليكتيكى الذى يقوم على الإيمان بأن التناقض هو المبدأ الحاكم لحركة المجتمع والكون ٠ ولا يتسع المقام للأسف الشديد لمناقشة مستفيضة لهذه القضية ، فضلا عن أننا لا نريد أن نثقل على القارئ الذى لا إلف له بمثل هذه المناقشات ، فقط أريد أن أشير إلى أن ما قلناه عن الهوية هو ما نجده فى منطق أرسطو عن قانون الذاتية وليس عدم التناقض ، فالدكتور مراد مثلا هو الدكتور مراد وليس شخصا آخر ، له سماته الشخصية والفكرية التى تميزه عن غيره ، وهكذا الأمر بالنسبة لكل منا ، ولكل أمة من الأمم ٠٠ نقول هذا دون أن " نتوه " و" نتوه " القارئ أو السامع معنا فى أزقة المنطق وحواريه سواء الجدلى أو الأرسطى ، ولو حدث أن تغير فكر د٠مراد وتبدلت شخصيته ، فسوف يكون ذا هوية أخرى غير التى كان عليها وإن احتفظ باسمه ، كما يحدث بالنسبة للبعض ممن يمرون بتحول فكرى جذرى ، كما رأينا بالنسبة للمفكر الشهير روجيه جارودى ٠

إن أحدا لا يستطيع أن يمارى فى حدوث تغير فى الكون وفى الإنسان ، فهذه سنة الله فى خلقه ، لكن هناك حدودا للتغير ، وأظهر ما يمكن أن نسوقه فى هذا المجال هو سنن الله فى خلقه نفسها فهى هى لا تتبدل ، وهناك فى عالم الإنسان والحيوان قسمات أساسية لا تخضع للتغير ، فلقد عرفنا من تاريخ البشرية منذ بداية التدوين التاريخى أن الإنسان ظل كما هو إنسانا ولم يتبدل إلى كائن آخر ، ولم نجد كلبا تحول إلى كائن آخر ٠٠ وهكذا ٠

لكن الأمر قد يختلف بالنسبة لحركة المجتمع ، ففيه بالفعل تكوينات طبقية متناقضة ، كما نجد بين الأغنياء والفقراء ، وصراع لا بد أن نسلم بإمكان حدوثه ، لكن القول ب" حتمية " تحكم مثل هذا التناقض وفق قوانين تعمل آليا ، لم يعد مما يردده البعض كما كان الأمر من قبل ، وأخشى أن أقول أن الزمن قد تجاوز هذا ، فللإنسان قدرته وإرادته التى تمكنه ، بل مكنته بالفعل من أن يحطم كيانات تاريخية ضخمة لتسير الأمور وفق توجهات مغايرة تماما ٠ وفضلا عن ذلك فإذا استطاعت طبقة أن تهزم طبقة أخرى من خلال عمليات الصراع ، فهذا أمر لا يدوم أبدا ، فلقد تصور منشئو البلشفية فى روسيا أن طبقة العمال قد هزمت البرجوازية ومحتها من الوجود ، لكن ها هو الأمر يعود إلى ما كان عليه قبل قيام هذه الثورة ٠

وهكذا نجد أن القول بأن الهوية تعنى المقومات الأساسية التى تجعل الشئ يحتفظ بذاتيته هو سنة إنسانية وكونية ، وأخطر ما يمكن أن نسمعه حقا هو أن هذا أمر يتلاشى فى ظل الكوكبية ، التى تعنى ذوبان الكيانات الفرعية ، إلا إذا كان المقصود من هذا

القول أنه " مُراد " لنا حتى يتخلى كل مجتمع من مجتمعاتنا عن هويته ليذوب فى " الكوكبية " أو العولمة ، والتى هى ليست إلا تسييدا لثقافة بعينها على البشرية كلها ، هذه الثقافة هى الثقافة الأمريكية وحدها .

ومن هنا صدقت تلك الأصوات التى بدأت تتعالى مؤكدة أن هذه إن هى إلا صورة جديدة من صور الامبريالية والهيمنة ، وهو الأمر الذى بدأت تنبه له مجتمعات داخل العالم الغربى نفسه ، بل ومن داخل الولايات المتحدة نفسها ، وآية هذا ما حملته الأنباء لنا من مظاهرات ومظاهر احتجاج كلما عقد اجتماع تحت مظلة العولمة الاقتصادية .. فما بال مفكرو بلادنا يصرون على أن يكونوا عولميين أو كوكبيين أكثر من أهل البلاد التى انطلقت منها هذه الدعوات ؟! هل كتبت علينا التبعية حتى فى هذا ، ويحرص مفكرونا على أن يواصلوا دور الريادة حتى على هذا الطريق ؟

إننا نؤكد ما سبق أن قلناه ، كتابة وشفاهة ، عدة مرات ، أن تحذيرنا من مخاطر الكوكبية على هويتنا لا يمكن أن يعنى بأى حال من الأحوال مخاصمة ومقاطعة لتيار الثقافة الوافد من مواقع إنتاجها ، غربا كان أو شرقا ، بل إن هذه المخاصمة والمقاطعة غير مُستطاعة الآن فى ظل ثورة الاتصالات القائمة ، فضلا عن احتمالات المستقبل ، ويصبح من المطلوب أن نصبح قادرين على الانتقاء والاختيار ، وألا يذوب كياننا القومى وألا تنمحى معالم ذاتيتنا الثقافية التى تجعل المصريين ، مسلمين ومسيحيين مصريين ، و العرب عربا والمسلمين مسلمين .

إن السبيل الأساسى لهذا الذى ننبه عليه هو لغتنا القومية .. لغتنا العربية ، لابد من التضافر بكل ما أوتينا من قوة وبكل ما نستطيع من سبل أن نمدها بأسباب القوة ، وقبل ذلك بأسباب العودة إلى حياتنا ، بعد أن أغار عليها الإعلام - وما زال - وقصر بإزاءها التعليم - وما زال - فأخذت تضعف شيئا فشيئا حتى كادت أن تصبح غريبة فى بلادنا العربية !!

---

* صوت الأزهر ، فى ٢١، ٢٠٠٠/٤/٢٨

لأن الأعمال الإبداعية التى تظهر من خلال المسلسلات التلفزيونية هى الأكثر انتشارا ، كثيرا ما كانت تستثير العديد من التعليقات إذا صادمت بعض أحداثها وقائع بعينها تاريخية أو علمية ، وعلى سبيل المثال ، فكثيرا ما نسمع ونقرأ لبعض الأطباء عتاب شديدا على ما يتصل بالجانب الطبى الذى يظهر من خلال بعض الأعمال ويلحون على أهمية أن يستشير القائم بالعمل أحد المتخصصين فى الطب حتى يتسق ما جاء فى العمل الإبداعى مع حقائق الواقع ، وفى هذا الجانب بالذات وما ماثله لم يكن من المستساغ أبدا أن يفزع صاحب العمل الإبداعى صارخا مطالبا بحمايته من تدخل الأطباء زاعما أن العمل الأدبى لا يحكم عليه إلا نقاد الأدب ، وقياسا على هذا : أفليس من حق عالم الدين أن يطلب إبداء الرأى إذا تعلق الأمر بالدين؟

وأذكر مرة مشهدا فى أحد المسلسلات ، كان بطله أستاذا جامعيا ، فإذا بحوار بينه وبين آخر نسمع فيه أن زملاءه بالقسم قد انتخبوه رئيسا للقسم ، فعجبت لذلك أشد العجب لأننى أحد العاملين بسلك التدريس الجامعى منذ ما يقرب من أربعين عاما ومع ذلك فلم أسمع فى أى عهد من العهود أن رئاسة القسم بالانتخاب ،وأشياء أخرى تتصل بنفس المجال من أوضاع خاصة بالمعيدين ، ومجالس الكليات ،، وهكذا نشهد أخطاء فاحشة لأن كاتب العمل لا دراية له بأصول العمل فى السلك الجامعى ، فنتساءل بيننا وبين أنفسنا : هل يضير الكاتب أن يستشير أحدا متخصصا فى هذا الشأن ؟

وسؤالنا هنا : هل هذا يعد تدخلا لا يجوز فى العمل الإبداعى ؟

الحق أننا كثيرا ما قرأنا هذه المقولة الشهيرة بأن الأدب مرآة الحياة ، وكثيرا ما قرأنا عن معارك ضارية بين أنصار من كانوا يقولون بأن الأدب للأدب وآخرين قالوا بأن الأدب للحياة ، تماما مثلما حدث من صراع بين أنصار الفن للفن وأنصار الفن للحياة ، ولا نفهم طبعا من هذا أن الأديب ينقل لنا صورة فوتوغرافية لما يخبره فى الحياة ، لكنه من ناحية أخرى ليس مطلق اليد فى تصوير شريحة من هذه الحياة ، لأن هناك قيما أساسية لابد وأن يدخلها المبدع فى اعتباره ، فلا نتصور مثلا أن أديبا يكتب قصة تمتلئ حوادثها بشخص مغرم بأن يلعق ثدى أمرأة وفرجها ويطيل فى وصف هذا ويكرر مشاهده ، أو أن يكتب آخر عن شخص يعاشر أخته أو أمه معاشرة جنسية ، وثالث يصف مشاهد الجنسية المثلية بين رجل ورجل وبين امرأة وامرأة ، ويقول أن الإبداع يقتضى حرية تفكير وعمل ولا ينبغى أن يخضع للمعايير الأخلاقية !!

إن أبسط ما يمكن أن نوجهه إلى مثل هؤلاء : فهل يستطيع أحد منكم أن يكتب رواية من منظور سياسى فيشير بالتلميح إلى رئيس الدولة ناقدا ساخطا موجها له بعض السباب ؟ أو يعرض بالقوات المسلحة ؟ أو بوزير الدفاع ؟

بالطبع لا أحد يجروء على ذلك ...

فلماذا إذن هذه الجرأة على الثوابت الدينية وخاصة الذات الإلهية وادعاء أن الإبداع يختنق إذا ما أحطناه بكم من التحريمات والقيود حول هذا الجانب ؟ الغريب الذى لا أستطيع أن أفهمه حقا هو أن الكم الأكبر من الانتقادات قد صدرت من فريق كانوا إلى وقت قريب يرفعون راية الفكر الاشتراكى ، ومن المعروف أن أحد مظاهره فى الأدب ، ما هو معروف بالالتزام ، والتوجيه الاجتماعى للأعمال الأدبية والفنية ، فهل لا يشعر المبدع بالحرية إلا إذا انطلق مطلق السراح فى الشأن الإلهى وفى الشأن الجنسى ، لكنه لا يشعر بالحاجة إلى ذلك إذا كان الأمر يتصل بقضايا سياسية ساخنة ؟

---

* صوت الأزهر ، فى ٢٠٠٠/٦/١٦

انفصام دينى !

قادتنى الظروف أن أصلى الجمعة (٦/٣٠) الماضية فى مسجد قرية مراقيا السياحية ٠ لم يكن المسجد صغيرا ولكنى لاحظت أنه امتلأ عن بكرة أبيه بالمصلين حتى بدأوا يفترشون منطقة واسعة حوله ، ثم لا تسع المنطقة الوافدين كل لحظة ، فإذا بكثيرين يضطرون إلى الوقوف فى الأطراف منتظرين إقامة الصلاة متحملين حرارة الشمس ، لولا نسائم البحر تخفف عنهم قسوتها بعض الشئ ٠٠

العدد إذن ضخم ، مع أن المكان يوحى بأن رواده قد جاءوا للمتعة والاسترخاء وربما اللهو ٠٠ وها هنا ترى بالفعل كل ألوان الطيف الاجتماعى : فريق من هؤلاء الذين نسميهم " علية القوم " ، وفريق آخر ممن نسميهم " قاع المجتمع " من العمال البسطاء ، ثم فريق آخر من أواسط الناس مثلى ، وهكذا ٠

وتتعالى أصوات هذا الجمع الغفير بالصيحة الحبيبة العظيمة " الله أكبر " ، ويغمر قلبى فيضان من مشاعر الفرح والاعتزاز والأمل ٠٠ لكنها لحظات قليلة ، ثم إذا بمشاعر أخرى مؤسفة تأبى على كاتب هذه السطور الفرح والسرور !

ليست هى المرة الأولى التى أكتب فيها عن هذا الموضوع ، لكنه دائما يلح على ذهنى بحيث لا أستطيع فكاكا من تكراره والتنبيه عليه ٠فهل هذه الجموع الحاشدة دالة بعددها على " كم " التدين القائم فى هذا المجتمع ؟ لقد كتب بعض الكتاب عما أسموه " التدين المنقوص " ، وما أحببت أن أسميه " بانفصام دينى " عندما نجد انتشارا واسعا بين أفراد المجتمع على ممارسة " العبادات " ، ثم إذا بنا نرى فى الوقت نفسه انتشارا واسعا للقيم المادية الاستهلاكية ، وغلبة شعار " ياللا نفسى " ، واعتداء التلاميذ على معلميهم والأبناء على آبائهم وأمهاتهم ٠٠ إلى غير هذا وذاك مما تحفل به صفحات الحوادث فى الصحف اليومية ، مما يشير إلى ابتعاد واضح عما يقضى به التدين الحقيقى من " معاملات " ٠

إذا كانت هذه الجموع الحاشدة مظاهر تدين حقيقى فلم يستمر مجتمعنا حاضنا لما يقرب من عشرين مليونا من الأميين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة فى عصر تجاوز الحديث عن الأمية الأبجدية " وبدأ يتحدث عن الأمية الكومبيوترية والأمية الحضارية ، وصور أخرى يضيق المقام عن الإشارة إليها ، مع أن ديننا – على لسان نبيه الكريم – يؤكد على أن طلب العلم فريضة ؟

إذا كانت هذه الجماهير الكبيرة تحمل قلوبا عامرة حقا بالإيمان ، فما بال مجتمعاتنا ما زالت فى ذيل بلاد الدنيا فى النمو الاقتصادى ، وقرآننا ينطق فى العديد من آياته بأن الله عز وجل قد سخر لنا هذه الدنيا وما فيها لنقوم بواجب الخلافة على الأرض فنعمرها ونستثمر كل ما فيها ووهبنا من القدرات والاستعدادات ما هو مفتاح لهذا التعمير وذاك الاستثمار ؟

إذا كانت هذه الألوف المؤلفة ، بل قل هذه الملايين ، من البشر ترفع صوتها عالَيا بأن الله أكبر ، فكيف لا يتفق مع هذا أن تكون أمته هى الأخرى .. الأكبر بين الأمم قوة وعزة ، بل نراها مستذلة تؤمر فتطاع ، وتُهدد فترتعد فرائص حكامها ويسوقون أهلها كالأغنام فى الطريق الذى يُراد لهم من قوى البغى والهيمنة.. من قوى الشر والسيطرة؟!

إذا كانت هذه الحشود مؤمنة حقا فلم يكثر بينهم من ينهبون البنوك .. ويغتصبون النساء ، بل والأطفال ، يقدمون الرشاوى ويتلقونها ، ويزورون ، وينصبون ؟

وما بال قومى يتعصبون لما يقولون ولا يجادلون بالتى هى أحسن كما أمرهم بذلك خالق الجميع ؟

وما بال قومى يتحزبون ويتناحرون ، وهم الذين مفروض أن يعتصموا بحبل الله جميعا ولا يتفرقوا ؟

إسراف هنا وتقتير هناك !

فى أول الخمسينيات صرح الشيخ عبد المجيد سليم ، شيخ الأزهر فى ذلك الوقت تصريحا خطيرا أصبح من العلامات التاريخية الهامة ، فقد كان الملك فاروق يعبث على شواطئ إيطاليا وينفق ببذخ ، بينما كان الأزهر يعانى من قلة المخصصات المالية اللازمة لتسيير وتطوير التعليم به ، فقال الشيخ : تقتير هنا وإسراف هناك ! وكان لابد بعد ذلك أن يدفع منصبه ثمنا لهذه الصراحة والجرأة !

واليوم نريد أن نستخدم نفس العبارة ، معكوسة ، لنشير بها إلى موقف آخر مختلف تماما ، موقف فيه تباين بين من يُقترون فى الحديث الجميل عن أنفسهم ، ومن يسرفون فيه ، مع أن أصحاب الموقف الأول يملكون ما يتزينون به ، وأصحاب المقوف الثانى على العكس من ذلك ، كيف ؟

فى عدد أخبار اليوم الصادر فى التاسع من سبتمبر عام ٢٠٠٠ ، وعلى الصفحة السادسة نقرأ الخبر التالى : " أكد تقرير علمى أمريكى أن مستوى التلاميذ الأمريكيين فى القراءة لا يتقدم على الإطلاق ، كما أن مستواهم فى الرياضيات - وفقا لتقرير آخر - يتقدم بسرعة السلحفاة " . وقال توم لوفلس ، مدير مركز براون الذى وضع التقريرين أن التقدم الذى حدث فى مستويات التلاميذ منذ عام ١٩٧١ من مختلف الأعمار كان ضئيلا للغاية . وقال التقرير : " حتى لو حقق الطلبة تقدما فى بعض فصول الرياضيات تبقى نتائجهم فى المقابل متسمة بالركود " ، مضيفا أن عددا من التلاميذ فى سن الثالثة عشرة لا يملكون الأسس اللازمة لدراسة الجبر !!

أما فى جريدة الأهرام ، فنقر أ فى عددها الصادر يوم الثلاثاء الثانى عشر من نفس الشهر ، سبتمبر ، خبرا من لندن يقول : " فى محاول جادة لإنقاذ مستوى التعليم المتدهور - كما يراه البريطانيون - تعلن الحكومة البريطانية اليوم عن إصدار دليل يحتوى على مناهج خاصة لأولياء الأمور ، تمكنهم من معرفة الطرق السليمة لمساعدة الأبناء على المذاكرة والاستيعاب . وتشمل المناهج التى ستوزع على الآباء والأمهات على شكل كتيب ، معلومات ونصائح حول سبل إقناع الأبناء بالتوقف عن مشاهدة المواد الضارة التى يبثها التلفزيون ، وشرح العلاقة بين المواد الدراسية والحياة المحيطة بالأطفال " .

وعلى الفور قفزت إلى ذاكرتى المقولة التى رفعتها وزارة التعليم فى مصر فى أواخر الثمانينيات شعارا للتعليم عندنا بأننا " أمة لها مستقبل " فى مقابل تلك المقولة التى كانت عنوان تقرير أمريكى شهير : " أمة فى خطر " ! ، ويجئ النصان السابقان فى الفقرتين

السابقتين يعلنان عن حالة من التردى والتدهور فى تعليم الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ، بينما ما زلنا نذكر تصريحات وزير التربية عندنا فى العام الماضى بأن ما حدث من تطوير للتعليم فى مصر فى عهده لم يشهد له التاريخ مثيلا عبر ١٠٩ سَنة سابقة ، علما بأن من تولى وزارة التربية فى هذه الفترة أفذاذ مثل : سعد زغلول ، ود٠هيكل ، وأحمد لطفى السيد ، وطه حسين ، وإسماعيل القبانى ، وعلى ماهر ، وعبد الرزاق السنهورى !!

ويبرز السؤال : لماذا يقرر مسئولون فى أقوى دولتين فى العالم أن حالة التعليم عندهما كما وصفا من حيث التأخر والتدهور والضعف ، علما بأنهما يحتلان موقعا متقدما على مقاييس التنمية البشرية على مستوى العالم ، ونقول نحن أن التعليم لدينا من أحسن النظم ، ونسوق شهادات من هنا ومن هناك للتأكيد على ذلك، وتهب زوابع وعواصف فى وجه كل من تسول له نفسه أن يشكو ويئن من تأخر يشير إليه فى تعليمنا ، ويصل الأمر أحيانا إلى حد توجيه تهم تحريضية ، علمية وأخلاقية وسياسية له ، ونحن نحتل موقعا متأخرا على سلم معايير التنمية البشرية هذه ؟

عندما يشكو كاتب إلى قرائه !

من المألوف أن يتلقى الكاتب ، أو الصحيفة " شكاوى " من القراء ، لكن ، ربما من غير المألوف أن يكتب كاتب شاكيا إلى قرائه ، وممن ؟ من نفس الصحيفة التى يحبها واختارها قناة اتصال ينقل من خلالها آراءه وأفكاره إلى القراء ! كيف ؟

عندما تفضل الشاعر والأديب المرهف عصام الغازى بطلب أن أكتب فى الميدان بصفة منتظمة ، سعدت بهذا واعتبرته تكريما لى ، خاصة وقد كنت أتابع دائما هذه الصحيفة معجبا بتحريرها وكتابها ، فضلا عن أن قائد كتيبتها واحد من تلاميذ مدرسة روز اليوسف العريقة النابهين ، وهو الأستاذ محمد حسن الألفى ٠

كان " العامود " بمثابة سكن لقلمى ، لكنى لاحظت أنه بين فترة وأخرى يتغير مكانه عبر صفحات الميدان ، وأحيانا فى الصفحة الواحدة ، وأنا رجل لا أميل إلى تغيير السكن ، فلما نقلت هذه الملاحظة إلى أخى عصام ، فسر هذا بأن دواعى التحرير والتوضيب أحيانا ما تضطرهم إلى ذلك ٠ والحق أن هذا التفسير لم يكن مقنعا لى ، ولا داعى لأن أسوق عشرات الأمثلة لأعمدة فى مختلف الصحف ثابتة أمكنتها مهما كانت دواعى التحرير ، ثم وعد بتثبيت التسكين ٠

استمر الوعد قائما لفترة ، فإذا بمسلسل التغيير يعود مرة أخرى ، وإذا بقلمى نفسه يتمرد على هذا التنقيل من غرفة إلى أخرى ، فعاند ولم يطاوعنى مرة فى الكتابة ، ونقلت هذا إلى أخى الألفى ، فحرص على ألا يتكرر هذا ، وإن كان المكان الأخير غير مريح لى، فهو فى الطابق الأول من الصفحة ، بينما تحمل جوانحى آثارا سيئة للسكن فى الطوابق الأولى نتيجة تجربة غير طيبة فى سنوات عجاف من حياتى الأولى سكنت فيها فى شقة بالدور الأرضى ، وظللت سنوات أحلم بالسكن فى الدور الثانى حيث الفرصة أكثر للإطلال على الناس والاستمتاع بالهواء الطلق ٠

ورضيت بالوضع القائم ، رغم عدم ارتياحى له ، ثم إذا بنهج " التضحية " باقتراب عيد الأضحية ، يغير على مقالى الماضى ٠٠

فوجئت أمس الإثنين (٣/١٣) بأخ من الصحيفة يرجو أن أكتب مقال العدد التالى حالا بسبب ما سيكونون عليه من عطلة العيد ، فأخبرته بأننى بالفعل أخذت هذا بعين الاعتبار فأرسلت مقالين ذى موضوع واحد فى صفحتين لأسبوعين متتاليين ، ثم إذا به يقول أنهم دمجوا المقالين ونشرا معا فى نفس العامود بعدد ٣/١٣ ، فأسرعت إلى الصحيفة لأرى كيف تم هذا حيث أن العامود لا يتسع إلا لصفحة واحدة فولسكاب ، وإذا بى أرى العامود قد كتب ببنط " منمنم " تصعب قراءته على الكثرة الغالبة من القراء ، وبالفعل فقد عجزت

عيناى عن قراءته ، وتساءلت بينى وبين نفسى : ما فائدة النشر بهذا البنط المنمنم فى بلد يشيع فيه ضعف الإبصار ؟ واستعنت بزوجتى فقرأته لى ، فإذا بى أرى سكين الذبح تمارس عملها قبل موعد عيد الأضاحى ، وإذا بالحذف والاختصار يقتطعان قطعا مهمة من لحم المقال دون إخبارى مسبقا بهذا ، فاهتزت الفكرة التى تخللت المقالين ..!

شعرت بأسىعميق وبأسف شديد ..

وحاولت أن أكتب المقال الجديد المطلوب ، فإذا بقلمى يعاود التمرد على ، فيتوقف لا يريد الكتابة ، وهربت الأفكار من ذهنى وكأننى أعانى فراغا فكريا مذهلا ، ولم أجد أمامى من حل إلا أن أكتب عن هذا ، موجها شكواى إلى القارئ ، معتذر لعزيزنا رئيس التحرير أن تخطيته فى تقديم شكاواى إلى السلطة العليا (القراء) ، بدون أن توجه إليه هو باعتباره الرئيس المباشر !!

---

* الميدان ، فى ٢١/٣/٢٠٠٠

يريد أن يكون مسيحيا

أصبحت كلما " جرنى " حفيدى إلى حوار ، أشعر ببعض القلق ، لا لأنه ، مثل كثير من الأطفال ، من حيث محاصرتنا بأسئلة محرجة ، ولكن لأنه مغرم بالتساؤل فى الشأن الدينى بصفة خاصة . إن الأسئلة الحرجة على الرغم مما تسببه لنا من مآزق ، إلا أننا نعرف الإجابة وكل لما هناك فإننا نحرج من قولها ، وخاصة فى المسألة الجنسية ، أما فى المسألة الدينية ، فأحيانا ما لا نعرف الإجابة .

وكثيرا ما أتعجب بينى وبين نفسى من هذه الإمكانات العقلية الباهرة فى التساؤل والحوار إلى الدرجة التى يخيل إلى فيها أننى أمام فيلسوف لم يتجاوز من السن خمسة أعوام ، لا لأن حفيدى فريد فى إمكاناته العقلية ، ولكنها سمة عامة فى الجمهرة الكبرى من أطفالنا الصغار ، وتعجب بعد ذلك عندما يلتحق هؤلاء المفكرون والفلاسفة الصغار بمعاهد التعليم المختلفة سنوات عدة فإذا بهذه الإمكانات العقلية الباهرة تضمحل أو تضعف ، ويصيبها الفساد والعفن !

هى مسألة شائكة حقا ترددت طويلا فى أن أكتب فيها خوفا من سوء الفهم ، ولكنى توكلت على الله ثقة فى الله الذى يعرف حسن قصدى ، وأملا فى أن أحسن عرض ما أود قوله بوضوح لا يترك لبسا ..

كنت مع (أكرم) خارجين من المسجد بعد أن أدينا صلاة الجمعة ، وأثناء رجوعنا كان لابد أن نمر أمام كنيسة قريبة من المسجد ، وأمامها مبنى كبير يمارس فيه الأخوة المسيحيون عددا متنوعا من الأنشطة الدينية والاجتماعية ، وكانت هناك أعداد غير قليلة وقت مرورنا تدخل وتخرج من هذا المبنى ، وأحيانا الكنيسة ، فإذا بأكرم يفاجئنى بقوله : جدو .. أنا عايز أبقى مسيحى !

ألهمنى الله رباطة جأش ، فلم يبد على أى مظهر من مظاهر الضيق أو الغضب ، كذلك احمد الله أننى حرصت أشد ما يكون الحرص على ألا أقول أى كلمة تسئ إلى الإخوة المسيحيين ، على الرغم من أن الحوار كان محصورا بينى وبينه ..

سألته : هل أحد طلب منك هذا ؟ فأجاب بالنفى . فسألت : لم إذن تطلب هذا ؟ قال : أصل أنا باشوف الستات والبنات بيدخلو الكنيسة همه والأولاد والرجالة الكبار . قلت له : ويمكن فى المسجد أيضا أن تدخل النساء والبنات للصلاة . قال بس أنا عايز أنا وحضرتك وتيتة وماما ونور (أخته) نقعد مع بعض زى فى الكنيسة . فأجبته بأننا نجلس معا فى البيت وفى النادى وفى المصيف ، وفى كثير من الأماكن ، فليس مهما أن نختلط ساعة الصلاة .

وتصورت أن الحوار انتهى وأن الحفيد قد اقتنع .. لكن بعد لحظات ، وكأن عقله كان ما زال يفكر ، فإذا به يفاجئنى بسؤال آخر : همه المسيحيين يا جدو وحشين ؟ قلت له : لأ أبدا. قال : بس أنا سمعت واحد صاحبى بيقول إن المسلمين بس همه اللى حيروحوا الجنة ! فأجبته أن الله وحده هو الذى سيحاسب الجميع فى الآخرة ويقرر من سيدخل النار ومن سيدخل الجنة ، ولا تنس أن هناك من المسلمين من سيذهب إلى جهنم وبئس المصير : وأخذت أعدد عددا من الدواعى التى تدعو إلى ذلك .

ويأبى هذا الفيلسوف الصغير إلا أن يستمر فى محاصرته لى ، فيسأل : لكن ليه ياجدو إحنا مش زى بعض ؟ فأسأله : فى إيه ؟ فيقول : نبقى كلنا مسيحيين أو نبقى كلنا مسلمين ؟! فأحاول أن أبين له أن الناس فى هذه الدنيا مختلفون فى أشياء كثيرة ، هذا يحب كذا ، وذاك يكره نفس الشئ .. وفيه بنات وأولاد ، وفيه ليل ونهار ، وفيه شتا وصيف ، وفيه اللى ياكل كذا واللى ياكل غير كذا ..

ويبدو أنه قد بدأ يشفق على ، فأظهر أنه اقتنع ، ولو إلى حين ...

---

* الميدان ، فى ٢٠٠٠/٥/٣٠

مواطنون لم ينته تاريخ صلاحيتهم

" التعليم فى الكبر كالنقش على الماء " !

" بعد ما شاب ودوه الكُتاب " !

مثلان من تلك الأمثال التى تتداولها الألسن تشيران إلى ضعف ثقة فى أن يكون هناك رجاء من هذا الذى بلغ من العمر أرذله وأصبح " مسنا " أو " شيخا " حكم المجتمع بأن تاريخ صلاحيته لأن يكون عضوا فعالا عاملا تنتهى ببلوغه سن الستين ، ولا يجد له ملاذا يقضى فيه وقته إلا مع صحبته على ذلك المقهى الذى أصبح مشهورا باسم " مقهى أصحاب المعاشات " ، ويخشى أن يشيعه الأطفال بالصياح والسخرية فى الطريق قائلين : " يا راجل ياعجوز ، مناخيرك أد الكوز " !

وكم من قصص لا حصر لها يرويها كبار السن ، وكيف أن هذا وذاك كانت الأرض تهتز لوقع أقدامه ، ويقف كثيرون " طوابير " على باب مكتبه ينتظرون الحظو بمقابلته ، وكيف أنه إذا " كح " لا ينقطع رنين التليفون ، سواء فى المكتب أو المنزل للسؤال عن صحته والاطمئنان على سعادته ، و " يتلكك " كثيرون فى أى مناسبة لكى يسرعوا إلى تقديم التهنئة له ، حتى إذا دخل دائرة التعتيم عندما أحيل للمعاش ، ويمر بسلسة من الأمراض وينظر إلى التليفون لعله يرن لكن هذا لا يحدث اكتفاء بأن " يرن " صاحبنا نفسه بدلا من التليفون ، وتمر المناسبات ولا يجد من يقول له " كل سنة وانت طيب " !

وعلى عكس ما نراه فى العصر الحالى فقد كان قدماء العرب يجلون الإنسان كلما زاد تقدمه فى السن ، ويبدو أن ذلك كان مرتبطا بعدم شيوع القراءة والكتابة قبل الإسلام وتأخر معرفتهم بالطباعة فاعتمدوا اعتمادا كبيرا على الذاكرة ، إلى الدرجة التى كان فيها أمرا عاديا أن نجد البعض يستطيع أن " يُسمع " قصيدة طويلة من عشرات الأبيات حال الانتهاء من إلقائها ، وبالتالى فقد نظروا إلى " الأكبر " باعتباره " الأعلم " ، وهو أكثر خبرة ، حتى لقد قرن البعض بين التقدم فى العمر وبين " الحكمة " ، ومما ذكرته الأمثال العامية عندنا فى مصر ، على عكس ما قدمنا به : " أكبر منك بيوم يفهم عنك بسنة " ، وهو مثل يكاد يتطابق مع مقولة فيلسوف التربية الأمريكى الشهير " جون ديوى " التى قال فيها أن درهما من الخبرة خير من قنطار من المعرفة (النظرية) .

من أجل هذا كان لمثلى ممن دخلوا فى زمرة المسنين أن يسعد حقا أن يجد تناميا فى الاهتمام بهذه الفئة من المواطنين ، على اعتبار أن العطاء الإنسانى يظل مستمرا طالما كانت الحياة ما زالت مستمرة بصحة وعافية ، وأن يكون من مظاهر هذا الاهتمام ذلك

المؤتمر الضخم (المؤتمر الإقليمى العربى الأول لرعاية المسنين) الذى شرفتنى بالدعوة إلى حضوره مقررته ا.د آمال مختار صادق أستاذ علم النفس التربوى تحت مظلة مركز الرعاية الصحية والاجتماعية للمسنين بجامعة حلوان الذى تتولى إدارته فى الفترة من ٣-٥ أبريل عام ٢٠٠٠ ، تحت شعار (المسنون فى العالم العربى ، الواقع والمأمول فى مطلع ألفية ثالثة) . والحق أن المؤتمر لم يكن تقليديا ، إذ قام على صيغ ثلاث ، منها الندوات العلمية ، ومنها ورش العمل ، ثم الأوراق البحثية التى وصل عددها إلىسبعين دراسة .كذلك فقد تجلى فى هذا المؤتمر هذا الذى أصبح كثيرون يحلمون به ألا وهو التضافر والتآزر بين جملة من التخصصات العلمية والتطبيقية فى مجال واحد ، ومن هنا فقد راينا العديد من صور التنوع فى الاهتمام ، أطباء وأساتذة تربية وعلم نفس ، وفنانون ، وعلماء اجتماع ، وقادة مسئولون .. وهكذا .

وقد جاء هذا كحلقة من سلسلة من الجهود التى بدأت تظهر فى السنوات الأخيرة فى هذا المجال ، وعلى سبيل المثال ، ففى الأول من مايو عام ١٩٩٩ ، وفى إطار العام الدولى للمسنين عقد بجامعة الدول العربية الاجتماع التنسيقى للجان الوطنية للمسنين بالدول العربية ، حيث شاركت فيه ١٣ دولة عربية بالتعاون مع الجمعية العامة لرعاية المسنين بمصر ، وانتهى بالإعلان عن " رابطة عربية للمسنين " ، وبالفعل أعلن عن تشكيل (الرابطة العربية للجان الوطنية لكبار السن) التى تضم فى عضويتها جميع الدول العربية المشاركة ومقرها القاهرة . وفى آخر مايو من نفس العام ، عقد مؤتمر دولى بمركز الإرشاد النفسى بجامعة عين شمس وطب المسنين بكلية الطب . وفى يوليو أيضا انضمت كلية طب قصر العينى بجامعة القاهرة لجهود رعاية المسنين عن طريق إنشاء وحدة جامعية أكاديمية لطب وصحة المسنين ذات طابع خاص ومتعددة التخصصات .

وفى الدورة الخمسين للجمعية العامة للأمم المتحدة تم الاتفاق على ١٨ مبدأ تنتظمها خمس مجموعات لرعاية المسنين : الاستقلالية ، المشاركة ، العناية ، تحقيق الذات ، الكرامة :

- وتنص المبادئ المتعلقة بالاستقلالية على حاجة كبار السن إلى فرص للحصول على الخدمات الأساسية والعناية ، والعيش فى بيئات أمينة وتلقى الدعم للإقامة فى منازلهم لأطول فترة ممكنة .

- وتتناول المبادئ المتعلقة بالمشاركة اتخاذ القرارات ، ونشر المعرفة والخدمة المجتمعية ، وتشكيل حركات أو رابطات خاصة بكبار السن .

- وتتناول المبادئ الخاصة بالعناية مسائل العناية الأسرية والمجتمعية وفرص الحصول على الخدمات الصحية والاجتماعية والقانونية .

- وتدعو المبادئ المتعلقة بتحقيق الذات لدى كبار السن إلى أن تتاح لهم فرص التنمية الكاملة لإمكاناتهم والاستفادة من موارد المجتمع المختلفة .

- وتتناول المبادئ المتعلقة بالكرامة ، مسائل الاستقلال وسوء المعاملة جسديا وذهنيا ، وأهمية المعاملة المتسمة بالعدل والإنصاف .

وربما كان من الدراسات الطريفة التى شدت انتباهى تلك الدراسة التى قدمها د.عبد الرحيم الكردى أستاذ الأدب العربى ووكيل تربية الإسماعيلية عن " تجربة الشيخوخة فى الشعر العربى القديم " ، ومما جاء فيه هذه الصورة الشعرية التى رواها الجاحظ فى كتابه الشهير البيان والتبيين معرفا الشيخوخة بقوله

فاسمع أنبئك بآيات الكبر
تقارب الخطو وضعف البصر
وقلة الطعم إذا الزاد حضر
وكثرة النسيان وما بى مدكر
وقلة النوم إذا الليل اعتكر
أوله نوم وثلثاه سهر
وتركى الحسناء فى حين الطهر
وحذرا أزداده إلى حذر
والناس يبلون كما يبلى الشجر

فهذه الصورة تشكل ما يسميه الباحثون " مظاهر الشيخوخة " . ويزيدنا د.الكردى باستشهاده بأبيات أخرى للحطيئة يقول فيها :

يصب إلى الحياة ويشتهيها ... وفى طول الحياة له عناء
فمنها أن يقاد له بعير ... ذلول حين يهترش الضراء
ومنها أن ينوء على يديه ... ويظهر فى تراقيه انحناء
ويأخذه الهُداج إذا هداه ... وليد الحى فى يده الرداء
وينظر حوله فيرى بنيه ... حواء من ورائهم حواء
ويحلف حلفة لبنى بنيه ... لأمسوا مُعطشين وهم رُواء
ويأمر بالجمال فلا تعشى ... إذا مس وأن قرب العشاء

ولعل من الإسهامات المبدعة حقا ما قدمه د.فؤاد أبو حطب -كعادته- من أدلة علمية تدحض هذين المثلين اللذين قدمنا بهما المقال ، فهو يذكرنا بالصورة الشائعة عن

المسنين بأنهم يفقدون يقظتهم الذهنية وقدرتهم العقلية مع تقدم السن ، ثم يشير لنا بأن عددا من علماء النفس حرصوا فى السنوات الأخيرة على التحقق من هذه الصورة عن طريق عدد من البحوث حول النشاط المعرفى فى مرحلة الشيخوخة . صحيح أن نتائج هذه البحوث ما زالت محل جدل ، لكنها أتاحت الفرصة لبروز وجهة نظر ترى أن التدهور المعرفى السريع ليس حتميا بالضرورة لدى الشخص المسن وخاصة فى الشيخوخة السوية . وكانت هذه النتيجة وراء التشكك فى المسلمتين اللتين ورثهما علم النفس عن " جان بياجيه " ، أولاهما أن النمو المعرفى يصل إلى قمته ونهاية تقدمه مع المراهقة وحتى سن الرشد المبكر ، كما يحدث للجسم ، وثانيتهما أن مرحلة العمليات الصورية (التفكير المنطقى المجرد) هى آخر وأعلى مراحل التفكير الإنسانى .

وتتوافق نتائج البحوث الأجنبية التى شككت فى هاتين المقولتين مع ما سبق أن حدده عالمنا النفسى المصرى الكبير مع د.آمال مختار من قبل من محكات سيكلوجية للشيخوخة من منظور إسلامى حين ذكرا أن فقدان الرغبة فى التعلم أو القدرة عليه هو محك الشيخوخة الحقيقى ، فهذا الفقدان يصل بالإنسان إلى أرذل العمر ، وهى مرحلة يصفها القرآن الكريم بأن من سماتها الرئيسية أن المرء " لا يعلم من بعد علم شيئا " ، وحين يفتقد الإنسان القدرة على التعلم فإنه يفتقد الحكمة والخبرة وينتكس إلى نوع من الضعف أشبه بمرحلة الضعف الأول الذى كان عليه قبل بلوغ سن الرشد ، وفى ضوء ذلك قالا إن التعلم هو جوهر قوة الإنسان ، والعجز عنه هو علامة الضعف الإنسانى ، وفقدانه هو مؤشر الانحدار والنهاية .

وإذا كانت هناك مظاهر ضعف كثيرة تنتاب كبار السن فى مواقعهم الوظيفية وأجسامهم وعلاقاتهم الاجتماعية وأحوالهم النفسية إلا أن د.صلاح حوطر عميد كلية العلوم الاجتماعية بجامعة ٦ أكتوبر يشد انتباهنا إلى قضية على جانب كبير من الخطورة ألا وهى تعرض كبار السن إلى الاعتداء عليهم ، وكأنهم لا يحرمون من الكثير فقط ، بل تغرى حالتهم نفرا من ذوى النفوس المريضة إلى سلبهم مقتنياتهم ، وربما قتلهم أو إصابتهم إصابة فادحة .

ففضلا عن عرضه لعدد من الدراسات العلمية حول هذا الموضوع ، رصد باحثنا عددا من الحوادث من صحيفة الأهرام التى نشرتها خلال شهر ديسمبر من عام ١٩٩٩ ، فمن ذلك ، ما فوجئت به طالبة ، عند عودتها إلى شقة جدتها (٧٠عاما) التى تقيم بمفردها بمنطقة النزهة بمصر الجديدة وهى ملقاة بالقرب من باب الشقة غارقة فى بركة من الدماء ، فاقدة النطق ، حيث قامت خادمتها بذلك بدافع السرقة ، وكذلك ما حدث لشيخ سباك عمره ٧٤ عاما حيث لقى مصرعه إثر طعنة بسكين فى رقبته بيد شاب عاطل فى

سوق السمك بالجمالية .. إلى غير هذا وذاك من حوادث خرى متعددة لهـؤلاء المسـنين بكل أسف وبكل أسى !

إن تطلع أمتنا إلى التنميـة البشـرية حقـا يقتضـى أن يمتـد تـاريخ صلاحيـة المواطنين للعطاء بامتداد حياتهم

---

* الأهرام ، فى ٢٠٠٠/٥/١٦ ، والقاهرة ، فى ٢٠٠٠/٦/٦

مواطنون منسيون !!

منذ سنوات غير قليلة وهناك طوفان من الأحاديث حول " حقوق الإنسان " ، وفى غمرة هذا الطوفان ما زلنا نجد أن أمامنا شوط طويل حقا على هذا الطريق ، ولعل أبرز ما يقفز إلى ذهنى بهذا الصدد فئة من المواطنين ، قد نذكرهم بالخير شفاهة وكتابة ، لكننا فى نظمنا ومعاملاتنا نجد أنهم منسيون بكل الأسف ، هذه الفئة هى التى اصطلح أهل الاختصاص أن يسموا أفرادها بذوى الاحتياجات الخاصة ، والتى تشمل كل من يخرج عن حد الإنسان العادى العام ، مثل ذوى العاهات ، و أصحاب المستويات المتدنية من القدرات العقلية ، أو المصابون إصابات معيقة فى جسدهم ، أو أصحاب القدرات العقلية المتميزة .. وهكذا .

وقديما كنا نسمع من أساتذتنا قديما عن فرع من فروع علم النفس يختص بدراسة هذه الفئة ، كان يسمى " علم نفس الشواذ " ، لكن ، فيما يبدو ، فإن الوصف بالشذوذ وصف مؤلم للنفس ، على الرغم من أنه يضم كذلك هذه الفئة المتميزة من ذوى القدرات العقلية الفائقة ، وأحيانا ما يستخدم البعض مصطلح " التربية الخاصة " ويعنون به ذلك النوع من التربية والتعليم والتدريب الموجه لهذه الفئة على وجه العموم ، لكن أصبح من المفضل عدم استخدام هذا المصطلح لأنه ربما يختلط بوصف مشابه عندما نقول " التعليم الخاص " ، قاصدين به ، التعليم الذى يملكه ويديره أفراد أو هيئات من القطاع الخاص . بل إن هناك فى الدول العربية من يعنون به " التعليم الفنى " ، إذ ما دمنا نقول أن هناك ما يسمى " بالتعليم العام " ، فلابد أن يكون مقابله اسمه التعليم الخاص وليس الفنى !!

وكنت قد تلقيت دعوة كريمة من كل من الأستاذين الكريمين : د.طلعت عبد الرحيم عميد تربية المنصورة ، ود.مهنى غنايم وكيل الكلية إلى مؤتمر خاص بهذه الفئة من ٤-٥ أبريل الحالى ، فى محاولة جادة للفت الأنظار إلى هذه الفئة من المواطنين . وكان مؤتمرا مشرفا حقا غنيا بالمناقشات والبحوث ، فضلا عن حسن التنظيم ووفرة الخدمات ، وإن كان قد أثار فى النفس شجونا كثيرة تشير إلى مدى التقصير الذى يلقاه هؤلاء المواطنون فى نظامنا المجتمعى العام ، ويكفى أن باحثا قد أتى لنا بكتاب علوم من جزئين بطريقة برايل مخصص للطلاب المكفوفين بالتعليم الابتدائى ، وقرأ لنا مقتطفات منه فإذا بها لا تصلح إلا لمن يبصرون ، لأنها تطلب من الطالب الكفيف طلبات تعتمد على البصر والرؤية !!

وهنا لابد لنا أن نذكر كيف عاتب الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم ، وهو من هو فى رفعة الشأن وصفاء النفس ورفعة الأخلاق عندما انشغل عن واحد من كرام المسلمين كان يعانى من كف البصر ، فنزلت الآيات الكريمة " " عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى " ، فكانت تلك آيات بينات على حرص الإسلام على ألا تنتقص عاهة أصيب بها مسلم من حق من حقوقه ٠

وتستطيع أن تتخذ من القوانين والتنظيمات الخاصة بهذه الفئة فى هذا المجتمع أو ذاك معيارا من معايير التقدم ، وكم يؤسفنى عندما أجد واحدا مثلى -على سبيل المثال- ما من مرة أسافر فيها إلى دولة غربية ، إلا ويقدموننى دائما لو كان هناك طابور ما ، لأننى أمسك دائما بعكاز طبى أتوكأ عليه ، وهو أمر يهون كثيرا أمام الكثير من صور المواضع فى جميع أرصفة الشوارع كى تسهل على المعاقين الصعود والنزول سواء بأنفسهم أو بعربات خاصة ، بينما لا يحدث هذا عندنا ، وأكثر من هذا تعلو معظم أرصفة شوارعنا عند التجديد عن كافة المقاييس العادية فى مختلف المجتمعات ٠ومن السخرية حقا أن علق البعض على المناداة بأن ينال هؤلاء حقوقهم الإنسانية بتساؤل خبيث : وهل نالها عموم المواطنون العاديون حقا ؟!

---

* صوت الأزهر ، فى ٢٠٠٠/١٠/١٤

" أنجلزة " اللسان العربى فى مصر!

روى لنا أحد الأصدقاء نقلا عن شخصية كبيرة رواية أحزنته غاية ما يكون الحزن ، وهى أن ابنه الصغير روى له وقائع ما جرى من احتفال مُدرسته فى مدرسة لغات ، إذ قالت المُدرسة أن " محمد " - نطقتها دون أن ترفع الميم الأولى ، وبدون أن تشفعها بالصلاة والسلام عليه - كان يرد أن يسافر من مكة إلى المدينة ، وأراد أن يصاحبه فى السفر صديق له اسمه أبو بكر ، ولما عرض عليه الأمر أجابه هذا الصديق " أوكيه " يا محمد !!

معذرة للقارئ على قسوة الرواية وسخريتها ، ورب ضارة نافعة ، فلعل قسوتها تُشعره بخطورة هذا الذى نريد أن نؤكد عليه، فلعل ما يُشعر المرء حقا بالأسى أن يجد أمامه شريطا طويلا من ذكريات الكفاح الوطنى فى ركن هام من أركان الشخصية المصرية ، بذلت فيه ما يصعب حصره من الجهود حفاظا عليه ، ثم يرى بعينيه حاليا كيف تنمحى آثار هذه الجهود يوما بعد يوم ليتراجع معها هذا الركن الهام ، ألا وهو اللسان العربى . فقد حرص الاحتلال البريطانى على أن يلغى التعليم فى المدارس باللغة العربية أو غيرها ليكون بالإنجليزية ، لأن أساطينه كانوا متيقنين من أن المسألة ليست مجرد احتلال عسكرى ، وإنما لابد أن يتدعم هذا باحتلال العقول ، مما يقتضى السيطرة على اللسان المصرى ليكون لسانا إنجليزيا ، لكن الحركة الوطنية كانت واعية لهذا ، فكان ما كان من جهود للعودة التدريجية إلى التعليم بالعربية .

ثم إذا بنا منذ السبعينيات ننتكس نكسة ثقافية خطيرة بالعودة إلى التعليم بها ، تلك العودة التى بدأت بما سمى بمدار اللغات ، التى كانت قليلة ، فإذا بها تنشر انتشارا سرطانيا ، ثم إذا بوزارة التربية والتعليم تدخل السباق تدريجيا فتنشئ ما سمى بمدارس اللغات التجريبية ، ثم تتقدم خطوة أخرى لتدخل تعليم الإنجليزية فى المدارس الإبتدائية ، حتى المدارس التى ترفع الراية الإسلامية ، تعلم بالإنجليزية ، وليس هذا فحسب بل لقد دخل الأزهر ، أى والله حلبة السباق ، وظهر ما يسمى بالمعاهد النموذجية ،وكأن استخدام الإنجليزية فى التعليم الدينى هو علامة " النمذجة " ، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!

وإذا كان المثل السائر يقول لنا أن المرء مخبوء تحت لسانه ، فإذا تكلم ظهر ، فإن " الهوية الوطنية " و" الذاتية الثقافية " إنما يعبر عنها صاحبها وفقا للغة التى يتكلمها ، ذلك أن اللغة ليست مجرد حروف وكلمات وجمل وعبارات ، وإنما هى صورة رمزية للثقافة القائمة ، بل وللعقل القائم . انظر إلى أخوين من أب واحد وأم واحدة يعيشان تحت سقف واحد ، لكن أحدهما تعلم فى أحد معاهد التعليم بالإنجليزية ، وتعلم الآخر فى

أحد معاهد التعليم الدينى بالعربية ، طوال سنوات تعلم كل منهما ، فماذ تتوقع أن تجد بينهما من أوجه شبه أو اتفاق ؟ أؤكد للقارئ أنه سوف يجد نمطين عقليين مختلفان تمام الاختلاف .

إن الذى يفسر هذا هو أن اللغة هى " الحبل السُرى " الذى يربط بين المرء والثقافة الخاصة بها ، فإذا ما كانت هذه اللغة إنجليزية وحدها ، أو هى بالدرجة الأساسية واللغة القومية بدرجة ثانية ، وجدنا عقله وفكره يتغذى غالبا من الثقافة الأنجلو سكسونية ، فتأخذ كثير من سمات شخصيته فى التشكل والتلون وفقا لقسمات هذه الثقافة ، علما بأننا نعنى بالثقافة هنا معناها الأنثروبولوجى الذى يجعل منها كل ما اكتسبه الإنسان من عادات وتقاليد وأفكار وعلوم وآداب ونظم وقيم واتجاهات فى سياق تفاعله مع البيئة وغيره من بنى البشر

بل إنك لتستطيع أن تقف على الحالة الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية للمتحدث وفقا لما يسوقه فى أحاديثه من جمل وعبارات ، وبهذه المناسبة استغفر الله جل شأنه ، كما أعتذر للقارئ مرة أخرى على سوء العبارة التى سوف أستشهد بها دلالة على هذا ، فمنذ سنوات طويلة عندما كنت أسكن فى قريتى ، كان طفل لا يتجاوز خمس سنوات يلعب فى الحارة مع أطفال آخرين مساء فى أغلب الأيام ، فأسمعه كثيرا ما يشتم طفلة أخرى " يلعن دين أمك عالصبح " ، ففضلا عن فحش القول البالغ فهو يقول " عالصبح " فى المساء ، مما يشير إلى أنه مجرد مقلد ، فعندما يستيقظ صباحا يسمع لغة حوار متدنية فاحشة بين أبيه وأمه ، اللذان كانا يعيشان فى سكن فقير للغاية بحكم ما كانا عليه من فقر مدقع !

وانظر إلى هذا وذاك واسأل : هل يستخدم دائما أفعل التفضيل ، فإذا تحدث عن كتاب قال أنه أروع كتاب أو العكس ، وإذا تحدث عن زعيم قال أنه أعظم زعيم أو العكس ؟ وانظر إلى هذا وذاك ، هل يستخدم الكلمات ذات الأحكام القاطعة أم يستخدم كلمات تفتح الباب لاحتمالات عدة مثل ربما ، و قد ، و من المحتمل ؟ وهل يستخدم الألفاظ القبيحة الفاحشة فى أغلب الأحوال أم أنه حريص على ألا تصدر منه إلا الألفاظ المهذبة ، والكلمات المؤدة ؟ وانظر إلى المسميات التى تشير إليها كلماته وعباراته ، إذ من المؤكد أنها سوف تعكس الوسط والبيئة التى يعش فيها .. وهكذا .

من أجل هذا فنحن لا ننظر إلى طوفان استخدام اللغة الإنجليزية باعتباره مظهر تحضر ومواكبة للعولمة وإنما لابد لنا من تكرار ي- فى مجال التعليم على سبيل المثال - إلى التفرقة بين (تعلم) اللغة الإنجليزية و(التعليم) بها ، فلا يوجد مجنون يمكن أن يخاصم تعلم هذه اللغة ، فهى بالفعل اللغة الأولى للحضارة الحديثة ولابد من تعلمها وإتقانها ،

لكن أن نُعلم التاريخ والجغرافيا والرياضيات والعلوم بها فهذه مصيبة كبرى والله ، ولا يوجد وطن يحترم ذاته الثقافية يفعل هذا الذى نفعله ، ولو كانت لغتنا العربية من تلك اللغات ذات المكانة المتواضعة ، ولو كانت غير ذات تاريخ حضارى امتد إلى ما يقرب من سبع قرون ، لربما جاز تقبل ما يحدث ، فما بالنا وهى لغة القرآن الكريم ، وهى ، وهى ، من العديد من الصفات والمزايا التى يستحيل حصرها فى الحيز الحالى ؟

بل انظر إلى الجارة غير العزيزة إسرائيل ، واسأل عن لغتها العبرية ، التى كانت من اللغات الميتة عبر قرون طويلة ، لكنهم مع ذلك كانوا حريصين ، وهم يبنون دولتهم ، أن يعتمدوا على ركن هام من أركان بناء الدولة ألا وهو اللغة ٠ وكان الأمر بالنسبة لهم غاية فى الصعوبة ، إذ يأتيهم ، كما نعلم مهاجرون من أنحاء شتى من العالم ، أى بلغات عديدة ، إنجليزية وفرنسية وروسية وإيطالية وألمانية وأسبانية وعربية ٠٠ وغيرها ، ومع ذلك لم يثنهم هذا عن التمسك بالقرار الحيوى ، هو أن الجميع لابد لهم أن يتعلموا العبرية ، ويتقنوها، وتصبح هى لغة الحديث الرسمى فى مختلف المحافل ، فإن كنا نريد أن نكون لهم أصدقاء كما يأمل المطبعين ، فهلا نقلد أصدقاءنا ؟ وإذا كنا نريد أن نظل على عداء باعتبارهم مغتصبين لجزء غال من وطننا العربى ، أفليس من مقتضيات المواجهة أن نكون أصحاب عزة وطنية وشخصية قومية وهوية ثقافية ، وهذا وذاك مقومه الأساسى اللغة القومية ؟!

إننى لا أريد أن أكرر ما يشير إليه كثيرون ، بكل الأسى من أن الأسماء لمختلف المحلات والشركات والمراكز قد أصبحت اليوم بالإنجليزية ، وفى أحاديث كثيرين نراهم يطعمون كلامهم دائما بالكلمات والتعبيرات الإنجليزية ، وكأن هذا من مستلزمات " المنظرة "٠ أليس النهج العام السائر هو تقليد الغرب عامة وأمريكا خاصة ؟ فلمَ لا نقلدهم فى تمسكهم بلغتهم فنتمسك نحن بلغتنا العربية ؟ إن كيفية هذا مما يطول شرحه ، لكن الطريق الفعال فى هذا إنما يكون بالبدء بتعليم الأطفال أجزاء من القرآن الكريم ،قراءة وحفظا ، وتوزيع بقية الأجزاء على سنوات الدراسة فهذا هو أنجع الطرق إلى استقامة اللسان فى مختلف المواقع والمجالات !

---

* العربى ، فى ٢٠٠٠/٤/١٦

أمومة القرن الحادى والعشرين !!

كان السؤال المطروح أمامى هو : هل تغير معنى الأمومة ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين ؟

والحق أن من الواجب أن نفرق بين جانبين ، أولهما : فطرى ، وهو ما يمكن أن نسميه : الأساس البيولوجى ، وهو ثابت لا يتغير ، ثانيهما ، المتغيرات الحادثة والمشكلة للتعبير عن الدافع الفطرى ، وهى بحكم طبيعتها تكون دائما فى حالة سيولة من التغير .وعلى سبيل المثال ، فإن الإنسان منذ أن خُلق وهو يحس بالجوع والعطش ، ولم يتغير هذا الدافع الفطرى حتى الآن ، ولا نظنه سوف يتغير ، لكن طريقة إعداده لما يأكل وما يشرب ، والأشكال العديدة للمأكولات والمشروبات التى استطاع أن يولدها مما هو طبيعى ، وجملة التنظيمات والعادات والتقاليد المحيطة بهذا وذاك .. كل هذا ، من الأمور دائمة التغير .

شئ مثل هذا يمكن أن نقوله عن الأمومة .. فهناك أساس بيولوجى يتمثل فى رحم الأم حيث يوجد حبل سُرى يربط بينها وبين الجنين ، ويمده بأسباب الحياة ، والجنين عندما يخرج إلى الوجود ، فكأن قطعة من الأم قد تخلقت فى شكل إنسان يسعى ، حتى لقد عبر الأدب العربى خير تعبير عن ذلك عندما قال : أكبادنا تمشى على الأرض . وعندما يقطع الطبيب المختص الحبل السرى الذى كان قائما ، ينشأ، فى التو واللحظة حبل سرى آخر غير مرئى ، بين الأم والطفل الرضيع ، يتلقى من خلاله هذه الطاقة المحركة للحياة البشرية : الحب والحنان ، ثم سيل متصل من القيم والعادات والتقاليد والمفردات اللغوية والمفاهيم

لكن هناك كما كبيرا من المتغيرات التى أصبحت تحاصر الأم لتشكل التعبير عن وظيفتها الفطرية الخالدة ، فهى تخرج إلى العمل الذى لم يكن مشكلة من قبل فى ظل ما كان سائدا من فكرة العائلة الممتدة التى تشمل الجد والجدة والأعمام والعمات والأخوال والخالات ، ومن ثم كانت هناك " أحضان " عدة يمكن أن تتلقاه ، لكن ، فى ظل الأسرة " الذرية " الحديثة التى تقتصر على الزوج والزوجة والأبناء ، فقد أصبحوا " كل فى فلك يسبحون " ، الأب يقضى معظم وقته خارج المنزل ساعيا فى سبيل الرزق الذى أصبح لا يتأتى إلا عن طريق أكثر من عمل ، ربما يخرج وهم نائمين أو يخرجون هم وهو نائم ، ثم ويعود بعد أن يناموا وعند العودة إلى المنزل يكون منهكا متعبا لا طاقة له لملاعبة

أولاده أو سماع مشكلاتهم . وهنا يصبح العبء الأكبر من حيث المسئولية واقعا على عاتق الأم نفسها ، فى الوقت الذى تتآكل فيه مساحات وقتها خارج المنزل .

وفى السنوات الأولى التى يذهب فيها الأبناء إلى المدرسة ، نجد أن هناك متغيرات كثيرة أصبحت تحاصر دور المدرسة ، فيتركز جهدها فى أداء الوظيفة المعرفية بصفة خاصة ، من خلال ما نسميه ب " التعليم " تاركة إلى حد كبير وظيفتها الأخرى التى أسلمتها لها الأسرة منذ مطلع العصر الحديث ألا وهى وظيفة " التربية " ! بل إن كثيرا من الأمهات أصبحن يشاركن المدرسة - فى سنواتها الأولى - وظيفتها الأساسية " التعليم " ، عن طريق المذاكرة مع الأبناء ، ومساعدتهم فى أداء الواجبات ، وهو منظر أصبح مألوفا يوميا فى بيوتنا الآن !

ولم تعد احتياجات الأبناء هى فقط مأكل ومشرب وملبس ، ذلك أن الإيقاع السريع للحياة أصبح مُولدا لكم كبير من الصعاب والمشكلات التى تواجه هؤلاء الأبناء ، والتى تجدها الأسرة ملقاة على عاتقها ، وعندما نقول " الأسرة " ، فإنها - مرة أخرى - تُختزل فى الأم فى أغلب الأحوال . بل إن احتياجات المأكل والمشرب والملبس نفسها ، أصبحت على درجة كبيرة من التنوع والتغير ، مما لا يجعل مجرد توفيرها هو المطلب الوحيد ، وإنما : بأى نوع ؟ وبأى شكل ؟ ووفقا لأى نمط ؟ .. وهكذا ، مما يشكل ضغوطا ثقيلة على الأسرة ، فضلا عن احتياجات أخرى مستحدثة لم يكن لها وجود من قبل ، تأتى على رأسها تلك المستحدثات التكنولوجية التى لا يقف دورها عند حد الاستنزاف المالى فحسب ، بل ترتبط بها عادات وأنماط تفكير ، وتجمعات ، وسبل تعامل ، ومشكلات !!

ونتيجة لمثل هذا وغيره ، ارتفعت دعوة البعض ، لا فى مصر وحدها وإنما فى دول متقدمة كذلك، بضرورة أن تعود الأم إلى البيت تاركة العمل الخارجى ، وهى دعوة يمكن أن تكون وجيهة بالنسبة لوجود أطفال قبل سن السادسة ، لكننا ننسى أن عمل المرأة ليس مجرد سد لاحتياجات مادية فقط ، إذ له دوره الذى لا يمكن أن ينكره إلا معاند ، فالمسكن الحديث المحصور فى شقة ضيقة قد لا تتجاوز المائة متر إلا بقليل ، يرسم معالم محيط ضيق غاية فى الضيق تنحصر فيه الأم وتعيش ، مما لابد أن ينعكس على أفق تفكيرها وسبل تعاملاتها وعلاقاتها ، وبالتالى يكون له أثره السلبى على تنشئة الأبناء .

ومن هنا فإننا نكرر ما سبق لنا أن دعونا إليه من ضرورة أن تبدأ حركة قومية ضخمة لإنشاء دور حضانة ورياض أطفال ، وسوف نظل نكرر هذا لأن القضية تمس بنية أبناء هذه الأمة ، فى تلك الفترة من العمر التى تتشكل فيها البنية الأساسية

للشخصية ، على أن نضع فى الاعتبار هذا الضيق والفقر الشديد المحيط بالكثرة الغالبة من مساكننا ، مما يوجب ألا نترخص فى المكونات والعناصر التى لابد أن تتكون منها دور الحضانة ورياض الأطفال المطلوبة ، بحيث لا تكون مجرد " دور للإيواء " ، نضع فيها فيها الأبناء إلى حين عودة أمهاتهم ، وإنما لابد أن تكون " دورا للحياة " ، تزرع البهجة ، وترسم الابتسامة ، وتوسع الأفق ، وتضع فى أيديهم المفاتيح الأساسية للتعامل مع الحياة .

كذلك فلابد للأم نفسها ألا تستكين لهذه التقاليد المخربة التى سجنت نفسها فيها أو " سُجنت فيها كرها وميراثا ، فلا تترك زوجها يستمرئ الاعتماد عليها فى كل صغيرة وكبيرة فى المنزل موهما إياها أن البيت هو مملكتها هى وهى المسئولة بالتالى عنه ، فلابد أن تُترجم فكرة المشاركة إلى واقع ، " فشريك " الحياة ، لا ينبغى أن يفهم أن دوره هو مجرد " التمويل " ، وأبسط ما يمكن أن يقوم به ، تخفيفا عن الأم ، أن يقوم بشأن نفسه فيما يتصل باحتياجاته المنزلية الخاصة البسيطة. كما ينبغى للأم أيضا أن تُعود أبناءها ، منذ نعومة أظفارهم أن يقوموا هم كذلك بأمر أنفسهم داخل المنزل ، وخاصة بالنسبة للاحتياجات البسيطة ، فهذا ليس تخفيفا عما عليها من أعباء فقط ، وإنما هو ، من ناحية أخرى ، غرس لمفاهيم معينة لمعنى التشارك والتعاون لا بين الأبناء وغيرهم ، وإنما بينهم هم كذلك ، ومن سوف يرتبطون بهم مستقبلا .

ومما لا يقل عن ذلك أهمية ضرورة الوقوف بجدية أمام هذه الظاهرة التى أصبحت تزحف على بيوتنا ، ألا وهى هذا الغياب الطويل للآباء عن المنزل تحت دعوى : السعى نحو المزيد من الدخل ، ": كله عشانكو " !! فكم من آباء يتحول هذا الغياب لديهم إلى عادة ، ومهما تأته الدخول ، يظل شعاره : ألا هل من مزيد ؟ لقد قرأتها بنفسى عبر سطور باكية أرسلتها ابنة لأبيها الزميل الذى كان يعمل بالخارج : لا أريدك يا أبى " بنكا " ، أريدك أبا أراك قبل أن أنام ، وألمس يدك وهى توقظنى كل صباح ، وأخرج معك صديقا ألهو ألعب معك ، فهذه اللحظات التى أحلم بها تساوى عندى كنوزالدنيا !

ولم يستطع الأب بالفعل أن يقاوم هذه الدعوة التى حملتها هذه الكلمات الباكية ، فعاد مضحيا بالكثير من الدخل والموقع المرموق ، لكن هناك من يعيشون داخل مصر ، ومع ذلك لا يراهم أبناؤهم إلا نادرا ، ولو علموا الحقيقة لعلموا أن ساعة واحدة يقضونها مع أبنائهم ترجح كافة الكثير مما يكسبون من نقود ، ربما ينجحون فى " تلتلتها " ، لكنهم يفقدون أبناؤهم ، فأى جانب يفضلون ؟ !

---

* الميدان ، فى ٢٠٠٠/٩/٥

ازدواجية المعايير عند مثقفينا

تعودنا أن نكيل الاتهام إلى الولايات المتحدة الأمريكية على أساس أنها شهيرة بازدواجية المعايير ، كما نرى فى تعاملها مع المصالح الإسرائيلية مقارنة بالمصالح العربية ، وكما نرى فى إغماضها العين عن انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان فى نظم صديقة لها أو تابعة ، وصراخها عن انتهاكات مزعومة فى نظم لا تريد الانصياع لسياساتها . ومع ذلك فنحن هنا فى مجتمعنا ، وعلى أعلى مستوى من التعليم والثقافة والفكر نمارس نفس الخطيئة .. تلك التى يعبر عنها القول المعروف :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة وعين السخط تبدى المساوئا !!

وبداية لابد لكاتب هذه السطور أن يسجل إيمانه العميق بأن مواجهة الفكر المخالف لما نرى ونؤمن لا تكون إلا بفكر آخر ، وأن استخدام العنف المادى أو التحريض عليه سم قاتل يصيب حركة الفكر والثقافة بالضعف والمرض . ولابد لى أيضا أن أسجل إدانتى الواضحة لما يسمى بالحبس الاحتياطى على ذمة التحقيق ، فالكتاب والمفكرون لن يهربوا ويتخفوا إذا طلبوا للتحقيق .

أقول هذا تعليقا على القضية الخاصة بالدكتور سعد الدين إبراهيم الذى ما كنت أتمنى أبدا أن يتم سجنه قبل التحقق مما يوجه إليه من تهم ، لكن الذى أعجب له حقا هو كتابات كثرت فى الأيام الأخيرة حوله ، فباستثناء صحيفة أو اثنتين ، فإن الكثرة الغالبة أخذت تدين السجن الاحتياطى ، كما أخذت تندد بالذين يكررون الاتهامات ويضخمون فيها مؤكدين أن هذا لا يصح قبل أن يصدر الحكم النهائى فى القضية .

إن هذا مما يتفق تماما مع رأى كاتب هذه السطور ، ولكن ما أعجب له حقا أن هناك قضايا كثيرة مشابهة ، ولكن لفئات أخرى من الكتاب والمفكرين والسياسيين وقع عليهم ما هو أشد مما يقع على سعد الدين إبراهيم ، ومع ذلك فإن أنصار حقوق الإنسان ومحامى الديموقراطية والحرية ، وقفوا صامتين ، فى أحسن الأحوال ، وفى معظمها ساروا فى الطريق الذين يعيبون فيه اليوم على أصحابه !

هل يذكر القراء تلك القضية التى أثيرت قبل انتخابات مجلس الشعب ١٩٩٥ بمحاكمة عسكرية على عدد من أساتذة الجامعات والنقابيين ، لأن كل جريمتهم هى أنهم أرادوا أن يتقدموا إلى هذه الانتخابات ؟ لم يحملوا خنجرا أو قنابل ومتفجرات ، وإنما بحثوا عن كيفية سلوك الطريق القانونى والدستورى للتعبير عن آرائهم فكان مصيرهم السجن ! هل دافع عنهم أحد من الكتاب أو حتى أشار إليهم ؟ لقد هيأت لى الصدفة البحتة ، فى مناسبة أو مناسبتين لأتعرف قبل هذه القضية على اثنين منهم ، هما د.عصام العريان ،

ود٠محمد حبيب أستاذ العلوم بجامعة أسيوط ، وكان انطباعى عنهما هو دعاء إلى الله أن أملك بعض ما متعهم الله به من حسن الخلق والتهذيب وطيب المعشر ، والمجادلة مع الآخر بالتى هى أحسن ؟

وقضية اليوم الخاصة بحزب العمل وجريدة الشعب ، وكاتب هذه السطور كان على خلاف شديد فى الفترة الأخيرة معهما إلى درجة المخاصمة ، ولكن أن يصل الأمر إلى ما حدث لهما فهذا اغتيال واضح وصريح لموقعين خطيرين من مواقع العمل السياسى الشعبى والتعبير عن الرأى ، لا لشئ إلا لأنهما - كما يتردد - قد تجاوزا الخطوط الحمراء - على أساس أن هامش الحرية عندنا محدود ، يقرره أولو الأمر بأنفسهم ، الذين هم - بحكم مسئولياتهم العامة - موضع الرأى والنقد ! فكأننا أمام وحدة تجمع بين الخصم والحكم فى وقت واحد على الرغم مما يتزيا به هذا التصرف من " ديكور " مفضوح أمام الجميع !

وهنا أيضا نتساءل : أين حماة الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان من هذا الاغتيال السافرلا لشخص فرد وإنما لحزب به ألوف الأعضاء ، وجريدة يكتب فيها عشرات الكتاب ؟

• الميدان فى ١٥/٨/٢٠٠٠

وقفة مع الصديق !

هل يمكن أن يتسع صدر صحيفة لأحد كتابها أن يوجه لها نقدا علنيا على صفحاتها نفسها ، وإن صيغ فى صورة عتاب ؟

الحق أنه حدث بالنسبة لى منذ فترة قليلة ، مع جريدة الميدان التى أكتب فيها عامودا أسبوعيا ..

وهذا هو ما آمله حقا من العربى ، بل وأتوقعه من الأستاذ عبد الله إمام الذى شرفنى حقا بالترحيب بالكتابة المنتظمة أسبوعيا .

لقد حدثتنى نفسى فى بداية الأمر أن أرفع سماعة التليفون وأخاطب رئيس التحرير فيما أكتب عنه الآن ، لكن لا أدرى لم شعرت بهذه الرغبة الجارفة تجتاحنى لأن أختار السبيل الحالى ؟ هل هى عملية اختبار للعربى ولرئيس تحريره ؟ لم يقع هذا فى حسابى أبدا ، ولكن ، ربما أردت بهذا أن يكسب القارئ - فى حالة نشر المقال - صورة من صور حرية الحوار الذى يقول البعض أن الصحف الحزبية فى مصر تنادى به حقا وتلح عليه ، لكنها لا تتحمله إذا كان الأمر يتصل بها أو بالحزب الذى تمثله .

فى الأسبوع الماضى أرسلت مقالى الأسبوعى للعربى بعنوان (مصر المنهوبة) ، وفى كثير من الأحيان لا أجد بنفسى رغبة فى قراءة مقال لى بعد نشره ، لكن لا أدرى لم شرعت هذه المرة فى قراءة المقال الذى نشر فى العدد الصادر فى الثلاثين من أبريل ، وعندما انتقلت من الفقرة الأولى إلى الثانية أحسست بأن النقلة ليست واضحة ولا هى منطقية ، فأرجعت الأمر فى البداية لقصور منى ، وأسفت على ذلك مؤنبا نفسى أن العجلة فيما يبدو قد أنستنى شرطا اساسيا من شروط الكتابة ألا وهى الوضوح الفكرى والتسلسل المنطقى بين أجزاء المقال . ومع ذلك فقد عن لى أن أرجع إلى أصل المقال ، فإذا بى أجد الفقرة الثانية محذوفة من النشر !

ليست المسألة مسألة أربع أسطر أو أكثر حذفت من المقال ، فهذا أمر قد تعودت عليه مع الأسف الشديد ، وخاصة فى الصحف اليومية الحكومية ، والحجة المرفوعة دائما هى " المساحة " والتى يقف أمامها أمثالنا من الكتاب " الرحل " عاجزين عن الرد ، وإن كان لسان حالنا يمكن أن يشير إلى عديد من السطور فى مواضع أخرى لا يجرى عليها الحذف والاختصار ، مع أنها قد تحتاج الحرق ، لكن ، هناك دائما مقامات فى مثل هذه الصحف و "هرمية " تجعل البعض لا تحذف من كلماته كلمة حتى ولو كتب " ريان يا فجل " ، وآخرين يمكن ألا تعرف كلماتهم النور حتى لو كانت ممتلئة بالدرر !!

وقبل أن أشير إلى التفسير الذى رجحته ، يهمنى أن أثبت هنا السطور المحذوفة :

(تلك هى سطور من رسالة لسيدة اسكتلندية أرستقراطية اسمها " لوسى دف جوردون Lucie Duff Gordon " كانت قد جاءت إلى مصر وأقامت بها وأحبتها ، وكان ذلك فى ستينيات القرن التاسع عشر ، جاءت فى كتاب النهب الاستعمارى لمصر لجون مارلو ، وترجمة د٠عبد العظيم رمضان ، تلخص مأساة تعيشها مصر منذ سنوات طويلة ، وما زالت فصول المأساة تتكرر من فترة لأخرى مع تغير الأشخاص والأساليب والظروف) ٠

كان إثبات هذه الفقرة أمرا أساسيا لتفسير ما ورد فى الفقرة التى تسبقها ، خاصة وأن هذه الفقرة السابقة منسوبة إلى ضمير متكلم ، وهى مستهل المقال ، وبحذفها اختل البناء المنطقى للمقال ، مما يهز صورة الكاتب أمام قرائه ، فساءنى هذا كثيرا لأنه يتصل بقضية موضوعية وليست شخصية ، بدليل أن المقال يقرن باسمى خاطئا منذ أسابيع ثلاثة وهو (سعيد على إسماعيل) اعتمادا على أنه مكتوب صحيحا أعلى الصورة ، لكن هناك من قد لا يدرى حقيقة الاسم ومن ثم فهو يمكن أن يحتار هل اسمى هو سعيد إسماعيل على أم سعيد على إسماعيل ؟!!

ثم خطر لى خاطر – أرجو ألا يكون صحيحا – وهو أن يكون الحذف اتقاء لمشقة ذكر اسم د٠عبد العظيم رمضان ، الذى بينه وبين الناصريين الكثير من الغيوم الداكنة السوداء ، فهو دائم الهجوم على ثورة يوليو عامة وزعيمها العظيم خاصة ، جمال عبد الناصر ، وهو الأمر الذى أختلف فيه فعلا مع تقييمه ، لكنى ، على الرغم من هذا ، أحتفظ بعلاقة طيبة معه وفقا للقاعدة المشهورة : اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية !

إن هذا الظن الذى طفا على سطح تفكيرى جعلنى أفزع كثيرا ، حبا للعربى وخوفا عليها ، فلا أظن أن هناك ما يمكن أن يهز مصداقيتنا مثل أن نحجب حقيقة لمجرد أننا على خصومة مع القائل بها، والحقيقة هنا أن هذا النص الذى استعنت به هو من ترجمة د٠عبد العظيم ، ونشرها بدون أن أنسبها إلى صاحبها يوقعنى فى شبهة النقل من غير الإشارة إلى المصدر ، وهو أمر يجافى الأصول والأعراف ٠

صحيح أننى أملك الكتاب الأصلى – بالإنجليزية – الذى نقل عنه جون مارلو وهو (Letters From Egypt) للوسى دف جوردون ، ، نشرته دار Virago عام ١٩٨٣ بلندن ، وبالتالى كان يمكن أن أنقل منه دون المرور ببوابة د٠عبد العظيم فأتجنب الحذف ، لكنى أعترف أننى لم أكن أتذكر أن مكتبتى تضم الكتاب ، ولم أره إلا بعد إرسال المقال ، وإن كنت غير نادم أبدا على الاعتماد على ترجمة مؤرخنا ٠

وإننى لأذكر بهذه المناسبة أن بعضا من طلاب الماجستير والدكتوراه ممن لى علاقة طيبة بهم ، وإن كان آخرون قد أشرفوا على رسائلهم ، كانوا يجيئون لى والحزن يكسو

وجوههم لأن هذا المشرف أو ذاك ممن لا يرتاحون لكاتب هذه السطور ، يستشيطون غضبا عندما يرون تلميذهم يستعين بكتاب لى كمرجع ويطلبون صراحة حذف الإشارة إليه . كان هذا يحزننى بطبيعة الحال ، لا لحذف الإشارة إلى كتاب لى ، ذلك أن هذا الحذف لا يمكن أن يحجب قراءته عن كثيرين ، ولكن خجلا من مثل هذه السلوكيات التى يسلكها بعضنا تجاه بعض أمام تلاميذنا !!

وفى أيامنا الحالية أقوم بنشر كتابة لى قديمة ، فوجدت إشارة لكتاب لواحد ممن يدأبون على توجيه النبال والحجارة لى ، فإذا بى أكاد أحذف الجزء الذى اقتضى هذه الإشارة ، لكن بعد دقائق معدودة أنعم الله على بألا أفعل .

وكانت باحثة تكتب رسالة دكتوراه عن الخطاب التربوى فى مصر تحت إشرافى ، فوجدت أنها قد أغفلت كتابات بعض من أساءوا إلى إساءة بالغة ، كما ونوعا ، متصورة أنها تسعدنى بذلك ، فكتبت لها ملاحظة بخط يدى طلبت منها أن تحتفظ بها للتاريخ ، أن لابد من الاستعانة بكتابات فلان وفلان ، على الرغم من كراهية قلبية شديدة أصبحت للأسف أحملها لهما ، لكن للحكم العقلى الأولوية فى مجال البحث العلمى ، وكذلك فى المجال الفكرى ..

وأرجو ألا يظن القارئ أننى أقصد الادعاء بالتفرد بهذا السلوك ، فهناك بالتأكيد آخرون يلتزمون النهج نفسه ، بل وربما يتفوقون علينا . كذلك فلا بد من الاعتراف بأننى تعلمت مثل هذا من أساتذة لى ، وأخص بالذكر أستاذنا الراحل د.زكى نجيب محمود ، بل وتعلمته من زملاء ، وهل يمكن لأحد أن ينسى رد فعل الخليفة العادل عمربن الخطاب عندما صححت له امرأة رأيا قال به أمام جمهور من الناس ، فما غضب ولا أخذته العزة بنفسه أن تخطئه امرأة أمام هذا الجمع ، بل ما كان منه إلا أن أطلق هذه العبارة الشهيرة : أصابت أمراة وأخطأ عمر ؟! ولم تصغر قيمة عمر بل ازداد رفعة وعلو مقام !

---

* العربى ، فى ٢٠٠٠/٥/٧

الكوكلـــة !

منذ ما يقرب من أسبوعين كنت جالسا أمام التلفزيون أشاهد نشرة الأخبار ، وكان الخبر الرئيسى يتعلق بزيارة الرئيس إلى الولايات المتحدة ، فإذا بحفيدى (أكرم) يقول أنه كان يريد أن يذهب مع الرئيس إلى أمريكا ، فلما سألته عن السبب ، قال لأن هناك محلات ماكدونالدز التى يعشقها عشقا كبيرا ، بينما يلمس عدم استجابة له عندما يرغب فى أن أصحبه إليها ، ودائما أردد له أن من الأفضل أن يأكل الفول والطعمية ! ونفس الشئ عندما أجده مغرما بشرب الكوكاكولا ، فألح عليه أن يجرب مشروباتنا الشعبية فيأبى بشدة !

المسألة ليست مسألة " أكلة " أو مشروب ، فهذا وذاك جزء أساسى من منظومة ثقافية أخذت تنتشر فى أرجاء كثيرة من العالم وأجد نفسى ، مع كل الوعى الذى أحمله بمخاطر هذا السرطان الأمريكى الذى تتسع رقعة الإصابة به ، أكاد أقف عاجزا عن حماية أحفادى من مخاطره طويلة المدى ، لأن الانتشار أصبح يتخذ صورة طوفان كاسح ، وعاصفة رعدية يقف الإنسان أمامها لا حول له ولا قوة لا يملك إلا أن يردد الدعاء الإسلامى الشهير : اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكنا نسألك اللطف فيه !! وصدق ما ردده البعض بحق هذا المصطلح الطريف الذى عنونا به المقال عندما قال بأن الذى يحدث فى مجال المأكل والمشرب هو " كوكلة " ، على وزن " عولمة " إشارة إلى ما أوردناه عن الانتشار السرطانى للوجبات الغذائية السريعة الأمريكية والتى يصحبها جميعها مشروب الكوكاكولا .

ولسنا فى حاجة إلى أن نقول أن الوقوف أمام هذا الطوفان الكاسح والسرطان الثقافى ليس أمرا ممكنا الآن ، ولا نستطيع أن نخاصمه ونقاطعه أو نتجاهله ، وإنما مطلوب أن نفعل مع أطفالنا مثلما نفعل بالنسبة لبعض الأمراض التى نخشى أن يصابوا بها مثل الحصبة والجديرى وشلل الأطفال ، فها هنا " نطعمهم " بأمصال واقية ، فما هى الأمصال الواقية لهذا السرطان الأمريكى ؟

هنا نكرر ما سبق أن كتبنا عنه عدة مرات ولن نمل من تكرار ذلك ... إنه مصل ثلاثى الأبعاد يتناول : اللغة القومية ، والعقيدة الدينية ، والتاريخ القومى ، عندما نطعم أطفالنا ، وأجيالنا الشابة به ، فقد نساعدهم على أن يجدوا داخل عقولهم وداخل قلوبهم جملة من المعايير الثقافية الوطنية والقومية تتيح لهم فرصة الانتقاء والاختيار مما ينهمر عليهم من مفردات وعناصر الثقافة الوافدة دون أن يقفوا أمامها أحد موقفين ،

كلاهما يفتقد الصحة والصواب ، أحدهما موقف المخاصمة والمقاطعة والمقاومة ، والثانى موقف الاتباع والتقبل السلبى والانبهار .

فإذا أخذنا مثالا للغة القومية ، وهى العربية ، فنحن لابد أن نسلم بضرورة أن يتعلم أبناؤنا لغة أجنبية ، حتى يكونوا على اتصال بالثقافة العالمية ، لكننا ندين بشدة تعليم بعض المقررات بها ، فهذه والله نكسة تفوق من وجهة نظرى نكسة يونية ٦٧ ، فهنا تستعيد ذاكرتى فى التو واللحظة ، هذه المعارك الطاحنة التى خاضتها الحركة الوطنية فى أول القرن العشرين من أجل أن يتم التعليم بالعربية فى مدارسنا ، وكيف بدأت بشائر النصر منذ عام ١٩٠٧ عندما كان سعد زغلول وزيرا للمعارف ، وإن لم يكن هو متحمسا لهذا التعريب على عكس ما هو مشهور بين كثيرين ! فهل بعد هذا الكفاح نعود القهقرى مرة أخرى ؟

إن الطفل عندما تضعف لغته القومية ، كما هو حادث الآن ، ينقطع الحبل السرى بينه وبين ينابيع الثقافة القومية ، وينفصل عقله وقلبه تدريجيا عنها ، وعندما تقوى لغته الأجنبية على حساب لغته القومية ، تتصل الأسباب فقط بينه وبين الثقافة الأخرى ، فيقترب من عاداتها ونظمها ومعايير التفضيل فيها ، ويصبح أمريكيا عقلا وقلبا ، وإن تسمى باسم مصرى !

---

* الميدان ، فى ٢٠٠٠/٤/١١

كيف يدعو طفلُ الله ؟

حفيدى " أكرم " الذى يبلغ من العمر خمس سنوات ونصف ، دائما يرى فى الغرفة الخاصة بهم بمنزلنا صورة طفلة صغيرة جالسة مستندة إلى ركبتيها رافعة يديها ورأسها إلى أعلى تدعو الله ،وهو يسمع ويشاهد فى التلفزيون هذا وذاك ممن يدعون إلى الله ، وعندما يأتى معى إلى المسجد لصلاة الجمعة يرانا جميعا بعد النصف الأول من الخطبة نرفع أكفنا إلى الله داعين ،ثم فوجئت به مرة بعد أن انتهينا من صلاة الجمعة خارجين يقول لى : أريد أن أدعو الله ، فكان الرد الطبيعى ، فلتفعل ، فقال : لكن أنا لا أعرف ، قلت له : ادعوه بما تريد أن يتحقق لك ،فسأل : يعنى أى شئ أريد ؟ قلت له : نعم ، ثم سألته فبماذا : تريد أن تدعو ربك ؟ قال إنه يريد لعبا كثيرة ، حيث أنه أحيانا ما يشير لى إلى إحداها يريدها فأقول له : عندما يكون معى نقود كثيرة سوف أشتريها لك ، وأنا الآن ليس معى هذه النقود ! وذلك أنه يتلف ما نأتى له به من لعب فى نفس اليوم تقريبا فآثرنا ألا نشترى إلا البسيط منها قليل الثمن متحججين بهذه الحجة ،

ثم إذا به يسألنى سؤالا مفاجئا جعلنى أنظر إليه مليا وكأننى قد شككت أن يكون بالفعل طفلا لم يصل بعد إلى سن المدرسة ، إذ سأل : فلماذا لا يسأل هؤلاء الفقراء الغلباتين (الذين يقفون دائما على أبواب المسجد) الله أن يعطيهم مالا كثيرا حتى لا يستمروا هكذا غلباتين ؟! هنا وجدت نفسى أمهله إلى أن نصل إلى البيت لأعطى نفسى فرصة للتفكير ، وأن المسألة تحتاج وقتا أطول ،

كان من العسير على أن أنقل له تفسيرى للدعاء الذى يقوم على فكرة " السببية " ، والذى أشرحه أحيانا لبعض الطلاب الكبار ، قائلا : ليس معنى أن تدعو الله بشئ أن يتحقق استنادا إلى قوله تعالى " ادعونى أستجب لكم " ، فلا تؤتى الأمور إلا بأسبابها ، وأن أحدا من كسالى الطلاب إذا تصور أنه بدعائه الله أن ينجح يمكن أن ينجح بالفعل من غير أن يذاكر ، فسوف تتوقف الحياة وتركد حركة التقدم والتنمية والعمران ، ومن ثم " فمن جد وجد " ، وبما أن الله عز وجل هو الخالق للسنن الكونية ، والتى فى مقدمتها هذه العلاقة السببية بين الظواهر ، فإن الإتيان بالسبب دعاء إلى الله يستجيب له بتحقيق النتيجة التى تترتب على السبب ،

دخلت لحفيدى إلى المسألة من مدخل آخر ، فسألته : عندما تريد أن تشترى لعبة ، هل يمكن أن يعطيها لك البائع من غير أن تدفع له ثمنها ؟ قال : كلا ، كذلك سألته : وعندما تريد أن تشترى " سندويتشا " أو زجاجة عصير ، أو مياه غازية ، فكيف تحصل عليها ؟ قال : عندما أدفع للبائع ثمنها ، قلت له : هكذا ، الدعاء ، فعندما تريد شيئا من

الله أن يحققه لك ، فلابد أن تدفعه ثمنه ، والثمن هنا ليس نقودا ، لأن الله باعتبارها خالقا لكل شئ هو غنى عن العالمين ، ومن هنا يكون الثمن المطلوب فى صورة خير تفعله لنفسك وللناس . سلوك طيب تسلكه مع الآخرين . أداؤك للعبادات مثل الصوم والصلاة . سمعك واحترامك للوالدين ولمعلميك . أداؤك عملك بإتقان . ألا تسب أحدا .ألا تعتدى على غيرك إلا دفاعا عن النفس .. إلى غير هذا وذاك مما يسير على نفس المنوال .

لكن حفيدى ، لا يكتفى بهذا ، فإذا به يسأل : يعنى كل هؤلاء الفقراء لا يفعلون شيئا طيبا فأصبحوا على هذا فقراء ؟ قلت : ربما يكون بعض منهم كذلك ، لكن هناك من يعملون ، وفى نفس الوقت هناك غيرهم أيضا ممن لديهم المال والنفوذ يتسببون فى تضييع جهود الذين يعلمون . ثم أنقذتنا الأم والجدة بالنداء لنا لتناول الغداء حتى لا أدخل فى حرج كبير على يد هذا المناور الفكرى الصغير !

---

* صوت الأزهر ، فى ٢٠٠٠/٣/١٠

ما هكذا تكون المناقشة !

فى إحدى القنوات الفضائية جرت مناقشة بين طرفين ، كان الطرف الأول هو أحد كبار علماء الدين الفلسطينيين ، لا يحضرنى للأسف الشديد اسمه الآن ، أما الطرف الثانى ، فهو أستاذ الفلسفة بتربية عين شمس ، د٠مراد وهبة ٠

ولن أتوقف أمام الرأى " السياسى " الذى دافع عنه د٠مراد من حيث تبنيه ما يُسمَى بالسلام والتطبيع مع العدو الصهيونى ، فهو رأى لا يحتاج منا إلى عرضه على القارئ لمحاولة إقناعه بما فيه من خطأ ، فالملايين من أبناء هذه الأمة لا نقول من المحيط إلى الخليج ، وإنما نقول من جنوب شرق آسيا ، المحيط الأطلسى ، بل وبقاع أخرى فى مختلف قارات العالم تعلن يقظتها من أوهام السلام الخادع ، وها هى أنهار الدماء التى تسيل على الأرض المقدسة تغسل عار سنوات مضت لطخت العقل العربى الذى صدق خدعة السلام مع الصهيونية ، واسترد وعيه الغائب الذى يؤكد له تلك المقولة الشهيرة التى أطلقت عقب هزيمة يونية ١٩٦٧ أن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة ٠

إنما أتوقف أمام منهج فى التفكير والمناقشة أثارنى بالكثير من الدهشة والذهول أن ينتهجه أستاذ فلسفة كبير وعريق ، ليس هذا فحسب ، بل من أستاذ طالما رفع شعار العقلانية والمنطق والتنوير ! إنه يتبنى موقفا ما ، ليكن ، فهذا حقه وحق كل إنسانٍ ، لكن ، أن يعيد إلى الحياة تلك الأساليب التى انتهجها قوم من فلاسفة اليونان قبل سقراط ، فى هذا الزمن الذى نقول فيه أنه زمن كذا وكذا ، من خصائص وسمات التقدم المذهل لعصرنا ، فهذا ما لا نقبله له ، حفاظا على مكانته التى نقدرها وحفاظا على تاريخه الذى لابد أن نحترمه ٠

فهو يضع مقدمات يسلم بها من غير مناقشة ، ثم يبنى عليها ويستولد منها ما شاء من نتائج ، واصفا بها واقعا يتخيله ، ثم يروح مهاجما له ، منددا به !ولو صحت هذه النتائج التى تصورها للهثنا وراءه نردد معه هجومه وانتقاده وتنديده ، فكأنه وهو يسيرُ وفق هذا المنطق يذكرنى بأستاذنا الراحل د٠ زكى نجيب محمود وهو يوجه سهام النقد إلى المنطق الأرسطى ، لكن الصورة التى هاجمها راحلنا الكريم ، لها صلاحيتها فى بعض قطاعات الفكر ، مثل الرياضيات ، والفقه ، وغيرهما ، لكنها لا تصلح فى قطاعات أخرى ، إلا إذا تساءلنا أولا عن الأسانيد التى يستند إليها مستخدمه ، وهو يضع المقدمات ٠

ومثالنا هنا أن د٠مراد يقول أن الأصولية نبع للعنف والإرهاب بطبيعتها ، أيا كان اتجاه هذه الأصولية ، إسلامية ، أو مسيحية ، أو يهودية ، ومن هذا الحكم راح يستولد

العديد من النتائج ،ولما سئل عن مفهومه للأصولية قال بأنها الأخذ بما تقضى به النصوص دون مناقشة ، وأن هذا من شأنه أن يجعل العقل الأصولى متخلفا ، ويحكم بالتخلف على المجتمع الذى يبنيه ، وبالتالى فصاحب الأصولية يحكم بالكفر والهرطقة على من يخالفه ، ومن ثم يسعى إلى نفى وجوده بالقتل والعياذ بالله ! ولما سئل عن دليله على مقدماته ، أشار إلى البعض ممن يسمون فى عدد من الكتابات (متطرفين ، مثل سيد قطب !) .

ومعذرة أن نناقش صاحبنا من هذه الزاوية الأخيرة ، أى " من الآخر " ، كما يقول أهل البلد ، فساحة الفكر على وجه العموم واسعة يمكن للقارئ أن يجد فيها كل ألوان الطيف ، فقد كانت هناك العديد من الفرق والمذاهب والتيارات التى لا أظن أن دكتورنا العزيز يغفل عنها ، فالكتابات عنها تملأ آلاف الكتب بغير ما مبالغة تؤكد أن التعامل مع الفكر الإسلامى كتلة واحدة أمر غيرا صائب . وماذا نقول عن التاريخ ؟ إن ساحته أكثر اتساعا ، ودائرته تضم من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، رفعة وكرامة ، وخسة ورذالة ، جبنا وخنوعا ، وشجاعة وإقداما ..إلى غير هذا وذاك من أطراف ومواقف .

فإذا ما أراد المؤرخ المنصف أن يحكم فى قضية ما ، ولتكن ، مدى الالتزام بالمقومات الأساسية لحرية الفكر فى الساحة الإسلامية ، تاريخا وفكرا ، كان عليه ألا " يصطاد " الأمثلة التى تثبت حكمه المسبق ، فهذا سلوك مُدان منهجيا مثله مثل القاضى الذى يكتفى بسماع شهادة شهود الإثبات للتهمة الموجهة إلى موضوع المحاكمة ، وبالتالى فلابد من التوقف أمام نماذج تمثل الرأى المثبت لحرية الفكر ، وكذلك نماذج تمثل الرأى النافى لها .

ومن ثم فإذا كان د.مراد قد استطاع أن يشير إلى مفكر واثنين وثلاثة (وحتى هؤلاء يمكن المكنقشة فى مدى صحة حكمه عليهم) ، فإننا نستطيع أن نستشهد بعشرات الكتابات التى تقول بحرية الفكر ، ونستطيع أن ندله على عشرات الوقائع والأحداث والمواقف التى أعلت من شأن حرية الفكر ... لابد من عرض هذه الشواهد وتلك نوازن بين الفئتين ، ونرجح ما يهدينا التفكير والعقل إلى الحكم به ، مقرونا بالحجة والبرهان . ولا أظن أننى أضيف إلى د.مراد شيئا وأنا أشير إلى هذه النهج المطلوب ، بل ربما يكون أعلم منى بهذا ، إن لم يكن من المؤكد ، لكن ، يبدو أن منطق العلم بالشئ قد لا يتسق مع منطق العمل بما نعلم .

ثم ، من قال أن الأصولى هو الذى يسلم بالنصوص من غير مناقشة ؟

لو اردنا تعريفا للماركسية ، أليس الماركسيون هم المصدر الأول لهذا التعريف أم من يقفون منهم موقفا مضادا ؟ ولو اردنا أن نعرف بمفهوم التحليل عن فلاسفته ، هل نسأل الماركسيين أم نسأل مفكرا يؤمن بنهج الفلسفة التحليلية ؟ الإجابة لا تخفى على أحد ..

لكن د.مراد لم يلجأ إلى هذا الطريق .. وضع بنفسه ، أو استند إلى تعريف هؤلاء الذين ينظرون بعين الريبة والشك إلى كل من رفع راية التدين ، مع أن مفهوم الأصوليين الإسلاميين للأصولية أنها دعوة للعودة إلى المنابع الأساسية للدين .. للقرآن والسنة ، نقرأهما ونتدبرهما ونفهمها حق الفهم ، بل ونتعقل ما جاء بهما ، ثم نحاول أن نغير الواقع وفقا لما ننتهى إليه من قراءة وفهم وتدبر وتعقل ، لا وفقا لهذا الشخص أو ذاك ، وإنما وفقا لما يصل إليه " الجمع " من العلماء ! الرجوع إلى هذين المصدرين الأساسيين ، لأن الأمة الإسلامية طوال القرون المتأخرة التى اتسمت أحوالها فيها بالتخلف ، لحق بالفكر الدينى العديد من صور التشويه والقصور والخرافة ، ولا غرو فى هذا فالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتخلفة ، غالبا ما تنتج فهما متخلفا وقصورا فى التفكير .

هذا هو ما فهمناه من معنى الأصولية عند أصحابها ، فهل نصدقهم أم نصدق د.مراد؟

ومن قال أن الأصولية تعنى التسليم بالنصوص دون مناقشة ؟ أكاد أصرخ: حرام عليك !

لا أريد أن أقف موقف من يعطى درسا فى علوم الدين ، فهذا شأن له أصحابه الأقدر منى ، لكنى أجيب إجابة سريعة من فهم عام ، وهو أن هناك " ثوابت " وهناك " متغيرات " ... وهناك أمور بالفعل لا مناقشة فيها ، وهى ما يتصل بالعقائد ، وهناك أمور أخرى ساحة الاجتهاد فيها واسعة . لا مناقشة فى الإيمان بالله واليوم الآخر ورسله وكتبه ... وحتى هذه القضايا يمكن تقديم الأدلة والبراهين العقلية التى تعزز وتؤكدها ، ولننظر إلى أرفف المكتبات حيث مئات الكتب التى كتبها عشرات بل مئات الفقهاء ، الذين اجتهدوا فى فهم النصوص ، ولم تتطابق آراء الجميع أبدا . كيف ظهرت المذاهب الفقهية الأربعة ؟ كيف ظهرت الفرق الشيعية ؟ وغير هذا وذاك من عشرات الفرق والمذاهب ؟

---

* صوت الأزهر ، فى ٢٠٠٠/١١/١٠

كيف يفكرون ؟

فى أحد البرامج التلفزيونية عرضت لنا المذيعة العديد من التلاميذ والأمهات بصفة خاصة وهم يشكون مر الشكوى من التكدس الملاحظ فى المناهج الدراسية ، وخاصة فى المرحلة الابتدائية . ولم يكن الأمر يحتاج منا إلى التنويه نتيجة عرض هذا البرنامج فقط ، فالقضية ملحة ، والحديث فيها متداول ، ويستطيع كل منا أن يلمسها فى أولاده أو أحفاده أو أقاربه أو جيرانه .

وقد تبدو لنا هنا مفارقة نتيجة أننا نشير إلى تكدس فى مناهج التعليم ، وفى نفس الوقت هناك شكوى عامة من أن أبناءنا لا يتعلمون تعلما جيدا ، لكن مزيدا من التأمل فى القضية يمكن أن يبين لنا بكل سهولة ويسر أن ليس ثمة مفارقة بين الأمرين ، ذلك أن التكدس يمكن أن يعتبر أحد أسباب ضعف تعلم الأبناء وفقا للمثل الإنجليزى الشهير Jack of all trades Jack of Non: ، على أساس أن الذى يريد أن يعرف كل شئ غالبا ما ينتهى الأمر به ألا يعرف شيئا ، وبالتالى فإن ازدحام المناهج يزحم عقل التلميذ بكم كبير منالتفاصيل والجزئيات مما يوقعه فى حيرة وبلبلة .

ومن ناحية أخرى فإن هناك منطقا تستند إليه الوزارة وهو أن المعرفة أصبحت ككرة الثلج تزداد وتتضخم يوما بعد يوم ، بل ساعة بعد ساعة ، ومن ثم فلا يمكن أن يظل مستوى ما يتعلمه تلميذ الابتدائى مثلما كان عليه الأمر منذ عشر سنوات مثلا أو عشرين ، إذ كثيرا ما يردد آباء وأمهات قولهم بأنهم يرون أبناءهم فى الفرقة الرابعة - مثلا - الابتدائية يدرسون ما سبق لهم أن درسوه هم فى الفرقة الثانية الإعدادية ، وهذا الذى يندهشون له ويعجبون هو أمر طبيعى نتيجة هذا الذى ننبه عليه من حيث التقدم المذهل فى المعرفة . لكننا من ناحية أخرى نتساءل : وإلى ماذا سينتهى الأمر بنا بعد ذلك ، خاصة وأن إيقاع التغير والتقدم المعرفى يزداد بصفة مستمرة ؟ الحق أن علماء التربية لديهم الوسيلة الفعالة لمواجهة هذا الموقف الآن وغدا . كيف ؟

هل تتذكر عزيزى القارئ المثل الصينى الشهير الذى يقول إذا رأيت جائعا ، فبدلا من أن تعطيه سمكة اعطه شبكة ؟ إن هذا المثل يلخص بدقة كيفية المواجهة ، فهذا الجائع الذى تمده بسمكة أو سمكتين ، سيأكل ما تقدمه ، ويعاود حالة الشعور بالجوع ، حتى لو زدته يوما بعد آخر ، ومن ثم فالحل الأسلم أن يتعلم الصيد ليصطاد هو بنفسه حاجته ويواجه بها حالة الجوع من وقت لآخر !

هكذا الأمر بالنسبة لأبنائنا .. فلم يعد مطلوب منا أن ننقل إليهم كل ما يتم التوصل إليه من معارف ومعلومات ، ذلك أننا على وشك أن نصل إلى تلك اللحظة التى نجد فيها

استحالة ملاحقة ما يحدث من نمو معرفى ، ويصبح من الأوفق أن يركز التعليم على تدريب التلاميذ على مهارات التفكير المختلفة ، فالتفكير بالنسبة للإنسان هو مثل الشبكة بالنسبة للصياد ، هو أداة التعامل والتفاعل مع مفردات الكون والمجتمع ، ولست فى حاجة إلى أن أسرد على القارئ العديد من المبررات التى أؤكد بها على أهمية التفكير وضرورته ، ولا أن أسرد كما غير قليل من آيات القرآن الكريم التى تدعو الإنسان إلى أن يُعمل عقله ويفكر ، وتسخر من هؤلاء الذين يعطلون تفكيرهم ، ويقعون فى أسر التقليد الأعمى الذى لا يستند إلى أدلة عقلية وبراهين منطقية • وتعلم الأبناء مهارات التفكير يعنى أن يتحمل هو المسئولية فى الحصول على المعرفة كلما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وكلما وجد بنفسه حاجة إلى هذا وذاك من المعارف والمعلومات •

كذلك يصبح المطلوب التركيز على الأساسيات دون التفاصيل فى كل حقل معرفى أو مقرر دراسى ، مما يتيح الفرصة إلى أن يضم المقرر كما أكثر بنوعيات من التعلم أكثر فاعلية وفائدة •

• الميدان ، فى ٢/٥/٢٠٠٠

رسالة غائبة !!

عندما دعت مصر فى الستينيات إلى عقد أول مؤتمر للدول الإفريقية ، والذى انبثقت عنه منظمة الوحدة الإفريقية ، وكان منظمو المؤتمر قد اتفقوا مع (جروبى) على القيام بواجبات الضيافة من حيث المشروبات . فلما دخل جمال عبد الناصر قاعة الاجتماع ، لاحظ أن الأفراد الذين سيقدمون المشروبات المختلفة (الجرسونات) ، فى معظمهم من ذوى البشرة السوداء ، ففزع لذلك واستنكر الأمر ، وأمر أن يتغيروا حالا ، وأحدث هذا أزمة للمنظمين ، وكان عليهم أن يحلوا المشكلة حالا ، وتم هذا بالفعل !

كان هذا ذكاء واضحا للزعيم الراحل ، فكيف تقوم مصر بدورها الريادى بالنسبة للدول الإفريقية ، ثم تختار " للتخديم " على الحاضرين مجموعة من ذوى البشرة السوداء ، اللون المميز للجمهرة الغالبة من أبناء إفريقيا ، وكأنهم قد خلقوا لهذا الدور ؟ بل إن شيئا من هذا كثيرا ما سبب جراحا نفسية لإخوتنا فى السودان ، حيث كانت أفلامنا - القديمة خاصة - تقدم الجرسونات والبوابين من ذوى البشرة السوداء ، فى الوقت الذى كنا ننادى فيه ونتمسك بوحدة مصر والسودان !

إن المسألة ليست مسألة شكلية ، فهى تعكس مدى ونوع الاهتمام الذى نوليه لشعوب ودول تشكل محيطا أساسيا لمصر ، وهو الأمر الذى كان بارزا حقيقة فى السنوات الأولى من عهد ثورة يوليو ، وأشار إليه جمال عبد الناصر فى فلسفة الثورة ، ووقفت مصر بكل ما تملك من قوة وراء حركات التحرير الإفريقية منذ الخمسينيات ، وكانت تصدر مجلة متميزة باسم (نهضة إفريقيا) كان يرأس تحريرها الراحل محمد عبد العزيز إسحاق ، والدور الذى لعبته مصر بالنسبة للكونجو عندما تولى أمرها (لومومبا) ، والذى اغتالته أيادى استعمارية ، شهير حيث شاركت فى قوات الأمم المتحدة بفرقة كان يقودها ، إن لم تخنى الذاكرة ، القائد العسكرى البارز سعد الدين الشازلى .

لكن يبدو أننا فى سياستنا العامة ننزع منزعا متطرفا ، فى الوقت الذى نشن الحملات على من نرى أنهم متطرفون ! ومن المعروف فى الدراسات الأنثروبولوجية والنفسية أن التطرف فى ردود الفعل سمة من سمات العقل المتخلف ، فإذا فرح فرح فرحا عارما ، وإذا حزن وغضب تحول إلى وحش كاسر !

فإذا كانت مصر فى سنوات الثورة الأولى ، كانت قد أولت إفريقيا اهتماما ملحوظا، إلى درجة كانت تزعج البعض منا ويراه إنغماسا وإسرافا أكثر من اللازم ، كان يصل إلى حد الإنفاق الكثير بالمعونات المادية ، والأسلحة ، والمنح الدراسية إلا أنها فى الوقت الحالى تبدو وكأنها قد نفضت يدها تماما ، إلا من بعض المهام والأدوار التقليدية الضرورية .

والذى يهمنا هنا بالدرجة الأولى هو الدور الثقافى ، الذى تفرضه مكانة مصر تاريخيا وحضاريا ، ففى الوقت الذى يبلغ فيه تاريخ مصر الحضارى ما هو معروف ، نجد أن الكثرة الغالبة من الدول الإفريقية ربما لم تتح لها فرصة الوجود السياسى إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين .

وعندما نقول : الدور الثقافى ، يبرز الأزهر فى التو واللحظة بصفة خاصة ..

ولو استقرأ القارئ الروايات المختلفة التى سيقت تريد شرح الدوافع الأساسية التى كمنت وراء تطوير الأزهر عام ١٩٦١ ، فسوف يبرز فى جميعها أن هذا التطوير كان الدافع الأقوى هو تمكين مصر من القيام بدور حضارى فى دول إفريقيا وآسيا بصفة خاصة ..

لقد كان كثيرون يلاحظون ، أن البعثات التبشيرية الغربية عندما كانت تمارس عملها فى الدول الإفريقية لتنصير الناس ، كانت تعتمد على من يقدمون الغذاء للجوعى من الإفريقيين ، والملبس للعرايا ، والدواء للمرضى ، وما كان أكثر هؤلاء وهؤلاء ، دون أن يبدأوا بالوعظ والدعوة إلى النصرانية ، وكان لابد لهؤلاء الفقراء السود من أن يسألوا : لماذا تساعدوننا بهذه الصورة ؟ فيكون الرد : لأن ديننا : النصرانية ، ونبينا يأمرنا بهذا ! وتكون النتيجة الطبيعية ، هى إقبال من الأفارقة على هذا الدين !

وفى المقابل ، كان وعاظنا يعظون وينصحون ويدعون (كلاما) مجموعة من الناس ، الجوع ينهش فى بطونهم ، والمرض يفتك بأجسادهم ، والجهل يسكن عقولهم ، ولولا جاذبية خاصة فى الدين الإسلامى ، من حيث مبادئه وتعاليمه ، لما استطاع هؤلاء الدعاة الوعاظ أن يكسبوا للإسلام أحدا .

هنا ظهرت الفكرة : لماذا لا يكون الواعظ المسلم طبيبا ، أو معلما ، أو مهندسا ، بحيث يجمع بين علم الدنيا والدين ؟ ومن غير الأزهر يمكن أن يقوم بهذا ؟ ولماذا يقتصر دوره على الكليات التقليدية : اللغة العربية ، وأصول الدين ، والشريعة ؟ لماذا لا يضم كليات للطب ، والصيدلة ، والتربية ، والهندسة .. ؟

وكان ما كان من تغير لحق جامعة الأزهر ..

لكن ، هل تحقق لنا ما كان مرادا حقا ؟

على الرغم من أننى أكتب هذا على صفحات جريدة تصدر عن الأزهر ، جامعة وجامعة ، فأرجو أن يتسع صدرها لأن أجيب على تساؤلى هذا بالنفى !

وإجابتى هذه لا تمتد إلى الحديث عن الوحدة (الاندماجية) ، إذا صح هذا التعبير السياسى ، بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، فهذا له حديث آخر ، وإنما أقصد قضية بعينها ، ألا وهى الخاصة بدورنا الثقافى فى إفريقيا ، إذ كثيرا ما نرى خريجى الأزهر يتجهون

إلى الدول العربية ، مثلهم فى هذا مثل خريجى الجامعات المصرية كلها ، ونادرا من نسمع أو نقرأ عن أطباء ومهندسين ومعلمين وصيادلة ومحاسبين ذهبوا للعمل فى دول إفريقية ، وإذا وجدنا ، وجدناهم يذهبون للعمل فى وظائف تماثل تلك التى يشغلها من يذهبون للإعارة إلى هذا البلد أو ذاك ، أو بعبارة صريحة ، لا نجد (دعاة) أطباء وصيادلة ومعلمين ومهندسين ، وكم أتمنى أن يرد أحد على مكذبا هذا الذى أقول ، مستندا إلى إحصاءات ومواقع ووقائع ، لأن هذا الذى نقول إنما يصدر عن حب للأزهر وتقدير لدوره وغيرة عليه وطمعا فى أن يكون هو الأسبق والرائد .

إن المسألة هنا لا تقتصر على خريجى جامعة الأزهر وحدهم ، فهى تشير إلى اتجاه عام فى مصر ، ألا وهو الاتجاه شرقا وشمالا ، والازورار عن الاتجاه جنوبا ، مما يفرض علينا الإلحاح على ضرورة السعى إلى أن تقوم وزارة القوى العاملة بدور ملموس فى هذا المجال ، وأن يقوم الأزهر بالمزيد من الجهد ، بمساندة ضرورية من الدولة ، لفتح آفاق جديدة فى الدول الإفريقية ، لا لكسب لقمة العيش فقط ، وإنما سعيا إلى أن تعاود مصر ، ويعاود الأزهر ، ذلك الدور الثقافى الريادى بين شعوب هى أحق بالفعل .

إن إسرائيل استطاعت بالفعل أن تملأ الفراغ الذى خلفته مصر بغيابها عن الساحة الإفريقية ، وخاصة بعد هزيمة ٦٧ ، ولا يتسع المقام للإشارة إلى العديد من صور المساعدة التى تقدمها ، سواء عسكرية أو اقتصادية أو صناعية أو تجارية أو زراعية ، وكلنا يذكر أن الدول الإفريقية كلها قد قطعت علاقاتها مع إسرائيل عقب يونية ٦٧ ، ترى ، ألسنا نثق فى أن الموقف الآن قد اختلف كثيرا عما كان ، ومن الأمثلة على هذا ما حدث من تراجع دول إفريقية عن مساندة بطرس غالى عندما رشح نفسه للمرة الثانية أمينا للأمم المتحدة ؟

---

* صوت الأزهر ، فى ٢٠٠١/١١/١٦

طوفان العنصرية الغربية

فى أثناء دراستى للدكتوراه فى الستينيات ، وكانت تتناول عهد الاحتلال البريطانى ، كنت ألاحظ أن موضوعا بعينه يحظى بمساحات واسعة من الصحف والمجلات والكتب ، وبالتالى فقد كنت أقرا مناقشات طويلة مستمرة بين عدد من مفكرى الغرب يرمون فيها المسلمين بالتعصب ، وخاصة المصريين ، وبين عدد من مفكرى مصر مثل الشيخ محمد عبده وأحمد لطفى السيد وعبد العزيز جاويش ومحمد رشيد رضا وغيرهم ، ينفون بشدة هذا الاتهام ويؤكدون أنه على العكس من ذلك ، فالمصريون قوم بطبيعتهم متسامحون ، والإسلام أبعد ما يمكن عن التعصب .

كان الدافع للاتهام الغربى لنا - فى الغالب - بالتعصب هو حركات الرفض والمقاومة فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى للاحتلال الأجنبى ، خاصة إذا امتدت حركة الرفض والمقاومة لا إلى مجرد الوجود العسكرى ، بل كذلك إلى الهيمنة الثقافية ، والسطوة السياسية ، والعديد من صور السلوك الاجتماعى العام ، مما كان المسلمون يرون فيه مخالفة صريحة للدين ، وبالتالى ، فقد كان مطلوبا من العرب والمسلمين ، حتى يفلتوا من هذه التهمة أن يستسلموا لما يفرض عليهم ، ويسالون : هل من مزيد ؟!

وتمر عقود وراء عقود ، حتى نأتى إلى هذا العام الأول من القرن الحادى والعشرين ، ويحدث ما حدث فى واشنطن ونيويورك ، فإذا بطوفان من مظاهر التعصب الجهنمى الذى تحول إلى عنصرية واضحة ، (ذكرتنا بالنازية والفاشية والصهيونية ، وهى كلها نزعات عنصرية من إنتاج الأوربيين)، يغمر المسلمين جميعا ، وخاصة المقيمين فى الولايات المتحدة ، حتى ولو كانوا يحملون الجنسية الأمريكية ! أما المنطق القرآنى المعروف الذى يطالبنا بألا تزر وازرة وزر أخرى ، وهو الذى يتفق مع قاعدة قانونية معروفة بأن المسئولية عن الجريمة هى مسئولية شخصية ، أى تنحصر فى شخص مرتكبيها ، فقد توارى ، ذلك أن القوم هناك ، على الرغم مما هم عليه من وقوف على ذُرى المعرفة العلمية والتقدم التكنولوجى ، أصبحوا يصرون على إلصاق التهمة بكل من آمن بألا إله إلا الله،وأن محمدا رسوله إلى العالمين !

وتطالعنا الأنباء يوميا بالعديد من صور هذا التعصب الوحشى والعنصرية القبيحة اللذان أعميا بصر الغربيين على وجه العموم والأمريكيين على وجه الخصوص ففقدوا الرؤية السليمة لوقائع الأمور ، وأصبحوا يسومون آلاف المسلمين ، بل ملايين منهم ، سوء العذاب .

وكان من نتيجة ذلك على سبيل المثال أن ذكر مسئول الطلاب الأجانب فى جامعة واشنطن أن سبعين طالبا عربيا كانوا يدرسون فى الجامعة غادروها عائدين إلى بلادهم فى أعقاب الأحداث الأخيرة ، فيما أنهى خمس وأربعون طالبا عربيا دراستهم فى جامعة كلورادو بسبب الأحداث نفسها ، وقد أتى ذلك بعد ما سجلت إحدى الجمعيات الإسلامية الأمريكية أكثر من ٧٠٠ حادث اعتداء ، وصفت بأنها عنصرية ، ضد عرب ومسلمين ، تتراوح بين الضرب والسب والاغتيال .

ومن سوء حظ دار النشر المعروفة (سفير) التى يمتلئ سجلها بأفضل الأعمال وأرقى الجهود العلمية والفكرية ، أنها كانت قد أصدرت تقويما لعام ٢٠٠١ ، مشيرة فيه إلى حادث تحطم الطائرة المصرية فى ٣١ أكتوبر عام ١٩٩٩ فى نيويورك ، إذ حمل التقويم صورة طائرة منفجرة ، وعبارة " توكلت على الله " ، المنسوبة إلى المغفور له (البطوطى) ، وفى خلفية الصورة تبدو مدينة نيويورك وتمثال الحرية ، فلما عثرت المخابرات الهولندية على نسخة من هذا التقويم فى إحدى المدارس الإسلامية تصورت أنه صيد ثمين ، يشير إلى صلة لابد منها بين سفير وأحداث نيويورك وواشنطن ، مما اضطر الشركة أن تصدر بيانا تظهر فيه حقيقة الأمر .

وتمتد العنصرية إلى تلك الأنشطة التى تحاول من خلالها جمعيات خيرية متعددة أن تقوم بمساعدات وأنشطة تصب لصالح ملايين المسلمين فى أنحاء العالم ، وخاصة فى البلدان الغربية ، وفى إفريقيا ، نظرا للشح الكبير فى الموارد المالية اللازمة للإنفاق منها على الفقراء والتعليم والصحة ، فإذا بهم يعممون الحكم ، وينظرون إلى المصادر المالية المنصرفة إلى هذه السبل ، على اعتبار أنها تذهب إلى الأنشطة الإرهابية ، فبدأوا يسعون لتجفيف هذه الينابيع المالية ، ومن ذلك أن المحققين الأمريكيين بدأوا يجمعون ما يقولون أنه (أدلة) على أن شركة بنك التقوى بمدينة لوجانو السويسرية مملوكة للإخوان المسلمين ، وأنها تتخذ لها مقرا فى جزر البهاما للتهرب من الضرائب ومن الرقابة ، دون النظر إلى احتمال آخر ، وهو البعد عن احتمالات المصادرة والمضايقة التى تتعرض لها مثل هذه الأنشطة مع الأسف فى بلدان المسلمين ، ودون نظر فى أن الإخوان المسلمين لم يثبت على أحد منهم ، منذ عدة عقود ، أعمال عنف !

ونقلت الصحف أيضا أن رئيسة هيئة الطاقة الذرية فى مصر كانت المحجبة الوحيدة بالوفد المصرى المسافر إلى فيينا لحضور المؤتمر السنوى العام للوكالة الدولية ، وقبل سفرها بساعات اتصلت بالسفير المصرى تطلب منه توفير حماية لها من المضايقات المنتشرة فى أوربا بسبب الأحداث الأخيرة ، وأكدت رئيسة هيئة الطاقة الذرية للسفير أنها كمسئولة منصرية تحرص على حضور المؤتمر الهام لمناقشة العديد من

الموضوعات مع مسئولى الطاقة الذرية بأنحاء العالم الذين سيحضرون المؤتمر ، ولكنها كسيدة محجبة ، تخشى من تعرضها للأذى على أيدى من يهاجمون المحجبات فى شوارع أوربا ، وأنها تطالبه بتوفير الحماية لها كمواطنة مصرية فى مثل هذه الظروف الطارئة ، لكن السيدة الفاضلة فوجئت بسفيرنا يرفض طلبها مؤكدا أنه لا يستطيع أن يضمن لها الحماية طوال فترة تواجدها بفيينا مع الوفد المصرى ، واضطرت المسئولة الكبيرة أن تلغى سفرها !!

ومع كل هذا ، وهناك بطبيعة الحال غيره كثير لا يتسع المقام حتى لمجرد الإشارة إليه ، فإن دولا إسلامية ، مع كل الأسف ، وكل الأسى ، حريصة أشد ما يكون الحرص على أن تؤكد للولايات المتحدة أنها معها قلبا وقالبا ، وبالتالى تعينها على ما تفعل من جرائم بشعة فى حق شعب فقير أعزل ، هو الشعب الأفغانى ، ولا يقتصر الأمر على مجرد البيانات والتصريحات ، بل هناك من يقدمون مطارات لتنطلق منها الطائرات الأمريكية التى تقتل المسلمين وتدمر بيوتهم ومدارسهم ومستشفياتهم وطرقهم ومواصلاتهم ؛ وهناك من يقدمون المواني ، وآخرون يتطوعون بالمعلومات ، بل يصل الأمر أن يتعاون نفر من الأفغان أنفسهم ، وهم من يسمون بتحالف الشمال المناوئين لحكومة طالبان مع الأمريكيين ، طمعا فى حكم ، دون أن يعوا جيدا تجارب سابقة ، تؤكد أن كرسى الحكم عندما يأتى على مصفحات أجنبية ، فلابد لأصحابها أن تكون لهم اليد العليا فى التوجه والتسيير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

---

* صوت الأزهر ، فى ٢٠٠١/١١/٢